

خرائط اليرموك في قلبي

نصوص سردية شعرية

حسن العاصي

Publisher: Hassan Assi Rublishing House

License No.: 972606



خرائط اليرموك في قلبي

قصائد في الحنين، الغربة، والذاكرة التي لا تموت

حسن العاصي

نصوص سرديّة-شعرية تخاطب القارئ كمن يدخل بيتًا لا بالجسد، بل بالروح

"هذا الديوان ليس عن اليرموك كما كان، بل عن اليرموك كما يسكنني. عن الأزقة التي لا تُرسم، عن الوجوه التي لا تُنسى، عن الوطن الذي لا يحتاج إلى حدود كي يكون وطنًا".

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أي جزء من هذا الكتاب،
بأي سيلة كانت، إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر.

Yarmouk-kort i mit hjerte

Poetiske fortællende tekster

ISBN13: 978-87-972606-2-3

ISBN10: 8797260622

EAN: 9788797260623

Hassan Assi

Udgivernummer: 972606

Dansk bogfortegnelse

DBC A/S

Tempovej 7-11

2750 Ballerup

netpub@dbc.dk

E-publikationer

Omslag:Canva Design

Udgivelsesdato: 2025

Forlag: Hassan Assi

Originalsprog: Arabisk

Udgave: 1

Sidetal: 139

الإهداء

إلى الذين لم يعودوا، إلى الذين غادروا دون وداع، إلى الذين تركوا أبوابهم مفتوحة كأنهم سيعودون بعد قليل.

إلى أمي التي كانت تُصَلِّي في الفجر وتُخفي دمعها في صوت "آمين"، إلى أبي الذي علّمني أن الوطن لا يُرسم، بل يُحمل في القلب كأمانة لا تُفَرِّط.

إلى أصدقائي الذين كبرنا معًا في زقاقٍ ضيّقٍ كان يتّسع لأحلامنا، ثم ضاق بنا جميعًا، واختنق بالحرب، وبالغياب.

إلى اليرموك، الذي لم يكن مخيمًا، بل بيتًا، وحارةً، وصوتًا، وظلًّا لا يُفارقني.

إلى كل من حمل الوطن في جيبه ولم يجد له مكانًا في جغرافيا العالم، إلى كل من نجا، لكنّه لم يُشف، إلى كل من كتب كي لا ينسى، وإلى كل من قرأ كي يتذكّر.

هذا الديوان لكم، ولنا، وللبيوت التي لا تُغلق، وللأسماء التي لا تُمحي، وللحنين الذي لا يُشفى.

حسن العاصي

مقدمة لا تُشبه المقدمات

خرائط اليرموك في قلبي حين تُصبح القصيدة بيتًا، والحنين وطنًا

ليست هذه القصائد محاولة للكتابة عن مخيم اليرموك، بل محاولة للكتابة منه. من داخله، من ذاكرته، من أزقته التي لا تزال تمشي في روحي، ومن وجوهه التي لم تُغادرني، حتى حين غادرته. هذا الديوان ليس تأريخًا، ولا شهادة، ولا وثيقة سياسية. إنه خريطة وجدانية، مرسومة بالحبر والدمع، تُعيد بناء المكان كما يسكنني، لا كما تصفه الخرائط أو تقرّره الجغرافيا.

كبرت في اليرموك، لا بوصفه مخيمًا، بل بوصفه وطنًا مصغرًا، مكتظًا بالحياة، بالحكايات، بالأمل، وبالحنين الذي كان يُقال في كل جملة، حتى حين نتحدث عن الطقس. هناك، كانت فلسطين تُعلّق على الجدران، وتُغنى في الأعراس، وتُبكي في صمت الجدّات. هناك، كانت البيوت تُغلق بالثقة، وكانت الحارات تعرف أسماءنا، وكانت النوافذ تُطلّ على الحكايات، لا على الشوارع.

ثم غادرت. لا لأنني أردت، بل لأنني اضطررت. غادرت وفي حقيبتني صورًا لا تُطبع، وأسماء لا تُنسى، وغصّة لا تُشفى. غادرت وفي قلبي مدينة لا تُغادرني، مهما ابتعدت، مهما اندمجت، مهما تعلّمت لغاتٍ أخرى، ومهما تغيّرت ملامحي. في المنفى، كل شيء مرتب، لكن لا أحد يعرفني حين أقول "أنا من اليرموك". لا أحد يعرف أنني حين أعدّ القهوة، أصالح بها ذاكرة متعبة، وأنني حين أغلق النافذة، أغلق على صوتٍ كان يأتي من مئذنة في شارع فلسطين.

هذا الديوان كُتب في لحظاتٍ لم أكن أبحث فيها عن اللغة، بل عن النجاة. كُتب حين شعرت أنني أفقد ملامحي، وأنني أحتاج إلى أن أعيد رسم نفسي بالحروف. كل قصيدة فيه هي محاولة للعودة، لا بالجسد، بل بالنبض. محاولة لاستعادة ما لا يُستعاد، ولتسمية ما لا يُسمّى، ولإمساك بما يتسرّب من بين الأصابع كلما حاولنا أن نُعرّف الوطن.

لم أكتب هذا الديوان لأعرّف نفسي، بل لأعيد ترتيب الغياب في صدري. كل قصيدة هنا كُتبت من جهة القلب المكسور، ومن ظلٍّ أصيب بالدوار، ومن اسمٍ نُسي في جيب الغربة. لم أبحث عن القافية، بل عن أمي، وعن الجارة التي كانت تُغني من نافذتها، وعن الطفل الذي ركض خلف العيد ولم يلحقه. هذا الديوان ليس نصوصًا، بل ندوبٌ تُقال بصوتٍ خافت، لمن يعرف كيف يُصغي للحنين حين يتحوّل إلى طريقة في التنفّس.

ما الذي يبقى حين يغيب المكان؟ هل يمكن للقصيدة أن تُعيد بناء بيتٍ لم يُغلق بيدك؟ وهل يمكن للالتحام بين اللغة والذاكرة أن يُنقذ ما تبقى من الوطن في القلب؟ هذا الديوان لا يُجيب، بل يُصغي. يُصغي لصوت المطر في اليرموك، لصوت الجارة من خلف الستارة، لصوت الأمّ وهي تُخيط الغياب بإبرة مرتجفة. هو محاولة لتسمية ما لا يُسمّى، ولإبقاء الأسماء حيّة في زمنٍ يُمحي فيه كل شيء.

خرائط اليرموك في قلبي هو ديوان لا يُقرأ فقط، بل يُسكن. هو بيتٌ من كلمات، نوافذه مفتوحة على الذاكرة، وأبوابه تُفضي إلى الحنين، وسقفه من قصائد لا تُطلب منها أن تُشفى، بل أن تُضيء. هو ديوانٌ عن الغياب، لكنه لا يُكتب من فراغ. بل من امتلاءٍ لا يُحتمل، من حبٍ لا يُنسى، ومن وجعٍ لا يُراد له أن يزول.

كل نصٍّ في هذا الكتاب كُتب من ظلٍّ أصيب بالدوار، ومن اسمٍ نُسي في جيب الغربة ولم يُنطق كما يجب. لا تبحث هنا عن إجابات، بل عن أثرٍ يُشبهك في لحظةٍ لم تُقل لأحد، وعن صوتٍ يُربّت على حزنك كما كانت تفعل الجارة من خلف الستارة.

اقرأ هذا الكتاب كما تُصغي لنداءٍ من جهة الضوء، لا من جهة اللغة. اقرأه كما لو أنك تُعيد بناء بيتٍ لم تُغلق بابه بيدك، لكنك ما زلت تحرسه في قلبك.

أيها القارئ، لا تدخل هذا الديوان كما تدخل مكتبة، بل كما تدخل بيتًا غاب عنه أهله، وما زالت رائحة القهوة فيه تُربي الحنين على الطاولة.

هذه القصائد لا تُكتب، بل تُنذف. كل سطرٍ هو محاولةٌ للنجاة، وكل نصٍّ هو نداءٌ من جهة الضوء، لا من جهة اللغة. اقرأ هذا الديوان كما لو أنك تُعيد بناء ذاكرةٍ لم تُغلق، ووطنٍ لم يُودّع، وطفولةٍ ما زالت تركز خلف العيد.

إلى كل من عاش في اليرموك، أو حمله في قلبه، أو مرّ به ذات حلم... هذه القصائد لكم، ولنا، وللمكان الذي لا يموت، حتى حين يُهدم.

د. حسن العاصي

عن المؤلف

حسن العاصي، شاعر الذاكرة المنفية، وُلد في حضن اليرموك، حيث كانت البيوت تُربّي الحنين، كما تُربّي الأمهات أطفالهنّ على صوت المطر، وحيث كانت الجدران تحفظ أسماء الجيران كما تحفظ الكتب المقدّسة آياتها. غادر المخيم دون أن يُغلق الباب بيده، فبقي الباب مفتوحًا في ذاكرته، كندبة لا تُشفى، وكوطني لا يُنسى.

وغادره دون أن يُغلق الباب بيده. يكتب لا ليُعرّف نفسه، بل ليُعيد ترتيب الغياب، ويُربّي في القصيدة ما لم تُشِفْه الحياة. في نصوصه، الطفل يركض خلف العيد ولا يلحقه، والأم تُخيط الغياب بإبرة مرتجفة، والجارة تبكي من خلف الستارة، والقصيدة تُكتب من جهة القلب المكسور. هذا الكتاب ليس سيرة، بل نداء من جهة الضوء، ولا يُقرأ، بل يُصغى إليه كما يُصغى لخطى من لا يعود.

لا يكتب ليُعرّف نفسه، بل ليُعيد ترتيب الغياب في صدره، وليربّي في القصيدة ما لم تُشِفْه الحياة، ما لم تُداوه البلاد، وما لم تُجبره السنوات.

في نصوصه، الطفل يركض خلف العيد ولا يلحقه، والأم تُخيط الغياب بإبرة مرتجفة، والجارة تبكي من خلف الستارة، والقصيدة تُكتب من جهة القلب المكسور، لا من جهة اللغة.

قصائده لا تُحاول أن تُقنع، بل تُحاول أن تُبقي الذاكرة حيّة، أن تُنقذ ما تبقى من الضوء في زوايا المنفى، أن تُعيد رسم اليرموك كما يسكنه، لا كما صار في الخرائط.

هذا الكتاب ليس سيرة، بل نداء من جهة الضوء، ولا يُقرأ، بل يُصغى إليه كما يُصغى لخطى من لا يعود، وكما يُصغى لصوت الأم حين تُنادي من خلف الغياب.

هو محاولة للنجاة، وللحبّ رغم الفقد، وللكتابة حين لا تُنقذ، لكنها تُبقي القلب نابضًا بما يكفي لإكمال السطر التالي.

تقديم

"وأحسن الأشياء التي تعرف، ويتأثر لها، أو يتأثر لها إذا عرفت، هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاها، أو التألم منها، أو ما وجد فيه الحالان من اللذة والألم، كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة التي توجد النفس، تلتذ بتخيلها وذكرها، وتتألم من تقضيها وانصرامها..."

حازم القرطاجني

لماذا بالضبط "خرائط اليرموك في قلبي" بوصفها نصوصا سردية شعرية؟ إنه العنوان الذي استقرت عليه ذائقة الشاعر والأكاديمي "حسن العاصي"، تحديدا ما يمكن أن يكتف الحمولة الرمزية لسؤال الاغتراب ولوعة الحنين وجراح الذاكرة. فإذا سلمنا بطاحونة الزمن التي اقتطعت ستة وعشرين سنة، من إقامة الأستاذ الدكتور "حسن العاصي" بالدانمارك، إلا أن هذه الحقيقة في حد ذاتها عجزت عن محو ذخيرة مفعمة بالحنين وأوصالها متورمة بالحب الشديد والهوى المحرق لأنين الذكريات وصمت السنون الخوالي التي قضاها الأخ "حسن" مع أفراد عائلته الصغيرة وعشيرته الفلسطينية الكبيرة بمخيم اليرموك هناك، قريبا من دمشق، كلاجئين يراودهم حلم العودة إلى فلسطين، أولئك الذين يملكون المفتاح نفسه، معلقا على الصدور وجيناته محفوظة في القلوب تتوارثها الأجيال وعلاماته منحوتة على الخرائط والصور واللوحات الفنية، كشاهدة على وطن وإنسان وهوية.

إن اختيار الشعر لسرد بواعث الحنين، يعد صائبا لما يتميز به هذا الجنس الأدبي من قول موغل في الوجد والاشتياق إلى الديار والذكريات الماضية. هذا الحنين الذي يتأرجح بين لذة استرجاع، وألم فقد ما كان ولم يعد موجودا. هنا بالأساس تشتغل سلطة اللغة وتتحرك الأسطورة وتسرح المخيلة في احتضان كل شيء، بما فيها اللحظات الهاربة التي تشكل هوية الشاعر وتضفي عليها منطق الخلود والتأبيد كما فعل شاعرنا في ديوانه الباذخ "خرائط اليرموك في قلبي" على طول سبعة وخمسين قصيدة، أرى أن كل واحدة منها بمثابة قلادة تقاوم زمن يريد أن يمضي وما هو بمنته، حيث الأثر يستعصي على الاندثار، حين يتربع على عرش اللغة التي عبرها يحرق الشعر الوجدان والإحساس من الاحتلال الإسرائيلي الغاصب لقضية القضايا "فلسطين السليبية". لذلك، لا فرق ولا خلاف بين من يكتب قصيدة أو يحرق كلمة أو يرسم استعارة، مع من يحمل بندقية أو يرمي بحجارة في وجه الكيان المجرم، كلاهما في خط الدفاع الأمامي. فالكتابة ممانعة تتغيا عدم تحطيم الذاكرة ومقاومة النسيان الذي تجند من أجله الصهيونية العالمية المال والإعلام والعتاد يوميا، علاوة على تحويل الحياة والإعمار إلى خراب.

فماذا بعد اليرموك يا ترى؟ إنها خرائط الحنين المتجسدة في سردية مفعمة بالتاريخ ومحطاته التي لا تنسى، محمولة على أكتاف القصائد الشعرية، التي حولته إلى "ندبة في القلب وبصمة بلد على جسد" بالتعبير البليغ لمحمود درويش. القائل كذلك:

الحنين مسامرة الغائب للغائب، والتفات البعيد إلى البعيد.

هكذا شكلت تيمة/موضوعة الحنين عند شاعرنا "حسن العاصي" منبع وجدان ذاتي ثر عز نظيره، حيث توقفت شاهدة بين زمنين، ما كان أي ما حدث وما سيكون أي: مستقبل اليرموك، غير منتصر لا لراهنية زمن (الغربة) بل لماضوية تنتصب علامة فارقة بين إحساسين ووجدانين، فحسن اليوم لا يسكن المخيم، بل المخيم الذي يسكنه كما جاء في ثنايا الديوان. مبرزاً في الوقت نفسه تبرمه من راهنية الزمن الذي لم يستطع إدماجه في المكان، وبقي يعيش خارج المكان بتشبيه "إدوارد سعيد" منحازاً لماضوية مسكنها الحقيقي متجسد في الألفاظ والتشبيهات والمجازات والأشعار. وبمعنى من المعاني، نفهم أن الغربة إحساس بعدم الانسجام مع الأنا الفردي والأنا الجمعي كذلك. فإذا كانت الغربة تستدعي الحنين، فإن غرض الغربة والحنين يعد من الدوافع الفطرية في أعماق النفس الإنسانية. والحال أن قلائد "خرائط اليرموك" قصائد في الحنين والغربة والذاكرة التي لا تموت كما جاء في العنوان.

لقد دفع الاغتراب بشاعرنا "حسن العاصي" إلى المنافحة عن زمن لا يعود بلغة عربية بليغة وبصور شعرية ونسج خيال عميق وبأسلوب سلس تخاله حكاية تم تسريدها في قالب تصويري، بمستطاع أي قارئ أن يعُدَّ نفسه أحد شخوصها، بدءاً بأول سطر في الديوان "لم أعد كما كنت"، حيث يمكن أن نرى في هذا التعبير إعلان عن حداد أو تأبين ذكرى تأبى النسيان، وصولاً إلى آخر كلمة فيه (التي لم تودع كما يجب) التي قد يوحي أحد معانيها إلى نكأ الجراح التي تحتاج إلى أكثر من ضماد، ولعل ديوان "خرائط اليرموك في قلبي" صرخة تتغنى بالوجود وبالوجدان وتنتسب لأفق فلسفي يعكس قدر الشاعر الفلسطيني في المنفى الذي يحول المكان الجديد إلى طاقة استرجاعية لا استشرافية، كما يؤكد "حسن العاصي" في القصيدة الأولى المعنونة ب: "اليرموك الذي يسكنني"، يقول:

في المنفى، كل شيء نظيف

لكن لا أحد يسألني: هل أكلت؟ هل بكيت؟

هل اشتقت إلى صوت المؤذن في شارع فلسطين؟

أنا ابن اليرموك

لكنني لا أملك شهادة ميلاد

ولا مفتاح بيت، ولا صورة واضحة

أملك فقط هذا الحزن

وهذا الحنين

وهذا القلب الذي لا يعرف كيف ينسى

فمن تجليات هذه الأبيات ورمزياتها، الحنين إلى تلك القيم النبيلة التي عاشها الشاعر وساهمت في بلورة تجربته الإنسانية بمخيم اليرموك، أساساً ما يفتقده اليوم. وبما أن الأمم كيانات سرديّة، كما يقول "إدوارد سعيد"، حيال الشعور بالانتماء ووحدة المصير، أجدني مضطراً إلى الاستشهاد بنص آخر لا يقل لهفة

وحنينا وكسرا للإحباط والنأي عن الشعور بالضيق والسقوط، لكن في المقابل، انتفاض لفرائص الحنين، هذا النص عُذٌّ من آخر ما خطته أنامل "محمود درويش" قي ديوانه الموسوم بـ: "في حضرة الغياب".

هل انتهت الرحلة أم بدأت؟ هل اقترب هو من المكان، أم افترق المكان عن صورته في المخيلة؟ العائد كبير السن هو المرشح للمقارنة وللحيرة في ترجيح المتخيل على الواقعي. أما المولود في المنفى على أوصافه نقيضه الحسنى، فقد تخذله جنة صنعت خصيصا له، من مفردات تشربها وصنع منها صورا نمطية، لتكون مرشدة إلى الاختلاف. لقد ورث الذاكرة عن أهل خافوا عليه من النسيان / رهان الآخرين.. وورث الذاكرة من إلحاح الأناشيد على تمجيد الفولكلور والبندقية التي صارت هوية، منذ ولد الوطن، بعيدا عن أرض الوطن.. ولد الوطن في المنفى. ولد الفردوس من جحيم الغياب.

هي إذن، إحدى تقاطعات شكوى الغربة والمنفى وسردية المصائر التي آلت إليها أوضاع اللاجئين في كل مكان، ولعل الأنموذج الأبرز "مخيم اليرموك"، الذي يصفه أصحاب الأرض، بعاصمة الشتات الفلسطينية، أو أكبر التجمعات الفلسطينية في الخارج. لذلك، فكل ما قلته عن درر "خرائط اليرموك في قلبي" كما حكاها الشاعر والأكاديمي الدكتور "حسن العاصي"، وما سيرويه القراء عن هذا الديوان مستقبلا، لن تغن أحدا عن قراءة الديوان عينه والاستمتاع بشعريته واستعاراته المتعالية وذكراه الحارقة التي فجعت الذات وجعلت حسرتها ممزوجة بالرجاء الذي حولته اللغة إلى أحلام صارت أشد رسوخا من واقع الحال.

الرباط، في: 2025-09-16

ذ. محمد خريصي

اليرموك الذي يسكنني

لم أعد كما كنت

ولا اليرموك كما كان

أنا الغريب الذي يعرف كل زاوية

والمخيم الذي لا يعرفني حين أعود

أبحث عن باب بيتنا

عن الشقّ في الجدار

عن صوت جدّتي وهي تُصليّ بصوتٍ خافت

كأنها تُخاطب الله من خلف ستار الحرب

أبحث عن رائحة الخبز

عن ضحكة أخي

عن جارتنا التي كانت تُربيّ الورد في علبة طماطم فارغة

عن المدرسة التي كانت تُعلّمني أن فلسطين أقرب من الحلم

لكنني لا أجد شيئاً

إلا الركام، والصمت

والأسماء التي تُقال همساً

كأنها تخاف أن تُنسى.

اليرموك الذي يسكنني ليس هو الذي أراه

هو الذي كان يُناديني باسمي

ويعرف حزني من عينيّ

ويُربّت على كتفي حين أفشل في الامتحان

الآن، كل شيء غريب
حتى أنا
أمشي في الحارة كأنني أعتذر
كأنني أقول للمكان: سامحني لأنني غبت
سامحني لأنني نجوت

في المنفى، كل شيء نظيف
لكن لا أحد يسألني: هل أكلت؟ هل بكيت؟
هل اشتقت إلى صوت المؤذن في شارع فلسطين؟
أنا ابن اليرموك
لكنني لا أملك شهادة ميلاد
ولا مفتاح بيت، ولا صورة واضحة
أملك فقط هذا الحزن
وهذا الحنين
وهذا القلب
الذي لا يعرف كيف ينسى

حين كانت الحارة تعرف اسمي

كنتُ أمشي في الحارة
لا أحتاج أن أعرّف نفسي
فالحيطان كانت تعرفني
والأبواب تُفتح قبل أن أطرقها
والجيران يُنادونني
كما تُنادي الأم طفلها
حين يتأخر عن الغداء

في اليرموك
لم تكن الأزقة ضيقة
كانت تتسع لأحلامنا
لكراتنا المصنوعة من القماش
لأغاني فيروز التي تُذاع من النوافذ
ولأحاديث جدّتي عن صفد
كأنها لم تغادرها قط

كنتُ أعرف الطريق إلى المدرسة
من رائحة الخبز
ومن صوت المؤذن
ومن ضوء الشمس حين ينسكب على وجوهنا
كأنه يُبارك طفولتنا.

لم يكن في المخيم ترف

لكن كان فيه كرامة .لم يكن فيه وفرة
لكن كان فيه دفء
وكان فيه فلسطين
لا بوصفها قضية
بل بوصفها طريقة في الكلام
وفي الحزن، وفي الحلم.

كبرتُ هناك
على إيقاع الحياة التي لا تُكتب في الكتب
على صوت البائع المتجول
وعلى لهجة تُشبهني
وتُشبه كل من قال "أنا من اليرموك"
دون أن يُفسّر
ثم غادرت
وفي قلبي حارةٌ
لا تزال تعرف اسمي
حتى حين أنساه

صوت جدّتي في صلاة الفجر

كنتُ أستيقظ قبل الشمس

لا لأنني نشيط

بل لأن صوت جدّتي كان يسبق الضوء

تُصلي بصوتٍ خافت

كأنها تُخاطب الله من خلف ستار الحرب

كانت تهمس باسم فلسطين

كما يهمس العاشق باسم من غابت

وكانت تبكي دون أن نراها

لكننا كنا نسمع البكاء

في ارتجاف صوتها حين تقول "آمين".

في ذلك الركن من البيت

حيث سجّادتها القديمة

كانت تُقيم وطنًا صغيرًا

لا يحتاج إلى حدود

ولا إلى علم

ولا إلى اعتراف دولي

في المنفى لا أحد يقول "يَمّا"

في المنفى

كل شيء يُقال بلغةٍ لا تُشبهني

حتى الحب، حتى الحزن، حتى النداء

لا أحد يقول "يَمّا"

ولا أحد يُرَبِّت على كتفي حين أخطئ

ولا أحد يعرف أنني أحمل مدينةً في صدري

وأنني حين أضحك

أضحك بلهجةٍ فيها قليل من الشام

وقليل من اليرموك،

وكثير من الفقد

في المنفى

الناس لا يسألون عنك

يسألون عن أوراقك

عن إقامتك

عن قدرتك على الاندماج

لكنني لا أندمج

أنا أذوب

كقطعة سكر في بحرٍ لا يعرف الطعم

الركام يُحدّق بي كأنه يعرفني

حين عدتُ إلى اليرموك

لم أجد البيت
ولا الحارة
ولا الشجرة التي كنت أُخبئ خلفها أسراري

وجدتُ الركّام
يُحدّق بي كأنه يعرفني
كأنه يقول: "أنت الذي غبت، وأنا الذي بقيت"

مشيتُ بين الحجارة
كمن يمشي في ذاكرته
أبحث عن صوتٍ
عن رائحةٍ، عن ظلٍ يُشبهني

لكنني وجدتُ الصمت
وجدرانًا لا تُجيب
وأبوابًا لا تُفتح
ووجوهًا غابت دون وداع

اليرموك لا يُعاتب
لكنه يُوجع
يُعلّق في القلب كغصّة
ويقول لك كلما حاولت أن تنسى: أنا هنا، فيك
ولست في الصور

شارع اليرموك لا ينام

شارع اليرموك لا ينام

حتى حين تُطفأ الأنوار

يبقى يتنهد في الظلام

كمن يُحدّث نفسه عن الذين مرّوا

ولم يعودوا

كان الشارعُ يعرفنا

يعرف وقع أقدامنا

وصوت ضحكاتنا حين نركض خلف الحياة

كأننا نراوغ الغربة قبل أن تأتي

في الصباح

كان ينهض قبلنا

يفتح أبوابه للمخابز

للباعة المتجولين

لأمهاتٍ يُسرعن نحو المدارس

ولأطفالٍ يحملون حقائب أكبر من أحلامهم

وفي المساء

كان يُضيء بحديث الجيران،

بصوت المذياع

برائحة القهوة،

وبأغاني تُقال من النوافذ كأنها صلاة

شارع اليرموك لا ينام
لأنه لا يريد أن ينسى
لا يريد أن يُطفئ ذاكرته،
لا يريد أن يُسلم نفسه للخراب

حين عدتُ إليه
وجدته يُحدّق بي
كأنّه يسألني: "أين كنت؟
لماذا تأخرت؟ هل نسيتني؟"

لكنني لم أنسَ
أنا فقط غبت، وغبتُ كثيرًا،
وغبتُ عن نفسي أيضًا

شارع اليرموك لا ينام
لأنه لا يزال ينتظرنا
ينتظر أن نعود كما كنّا
بضحكاتنا، بأحلامنا الصغيرة
وبأملٍ لا يُكتب في الصحف
لكنّه يُقال في العيون

حقيبتى لا تتسع لليرموك

حقيبتى ضيقة

لا تتسع لظلّ عمّتي وهي تُصَلّي

ولا لصوت المؤذن في شارع اليرموك

ولا لرائحة الزعتر حين يُغلي

في مطبخٍ صغير تُشعل فيه أُمّي نارًا من الحنين

وضعتُ فيها قميصًا

وصورةً باهتة

وبعض الأوراق

التي تُثبت أنني موجود في مكانٍ لا يعرفني

لكن اليرموك ظلّ واقفًا عند الباب

يحمل حارتي على كتفيه

ويقول لي: لن تدخلني في حقيبة

أنا أكبر من السفر، وأعمق من الحدود

حاولتُ أن أطوي الأزقة

أن أقلمَ الذكريات

أن أصغّر صوت الجيران

أن أخفي لهجتي في جيبٍ داخلي

لكنها كانت تُصرّ على الظهور

كلما ناداني أحدهم بلغةٍ لا تُشبهني

في المطار

سألوني: هل تحمل شيئاً يستحق التفتيش؟

فأجبت: نعم

أحمل مدينةً كاملة

بأبوابها، بأطفالها

بأحلامها التي لم تُهاجر

لكنهم لم يفهموا

فتشوا الحقيبة

ولم يجدوا شيئاً

لأن اليرموك لا يُوضع في الجيب

ولا يُحزم في حقيبة

ولا يُعلن في الجمارك

اليرموك يسكنني

كوشمٍ لا يُمحى

كأغنيةٍ لا تُنسى

كغصّةٍ لا تُشفى

وحقيقتي رغم اتساعها

لا تتسع له

لهجتي تُرتجف حين أُجيب
حين يسألني أحدهم: من أين أنت؟
أجيب

لكن لهجتي تُرتجف
كأنها تُقاوم الترجمة
كأنها تخاف أن تُفضح

صوتي لا يُشبههم
ولا يُشبهني تمامًا
هو خليطٌ من ياسمين الشام
وغبار اليرموك
وحنجرّة تعلّمت أن تُخفي الحنين
كي لا تُتهم بالضعف

أجيب
لكنني لا أُجيب حقًا
أُخفي "يمًا" خلف "ماما"
وأستبدل "شو" بـ "ماذا"
وأقلّم الجملة كي لا تُزعج النظام

لهجتي تُرتجف
لأنها تحمل في طياتها أغاني الجيران،
وصوت البائع المتجول
وصرخة طفلٍ في زقاقٍ ضيقٍ

كان يُقسم أن فلسطين قريبة

كل حرفٍ في فمي
يحمل ذاكرةً لا تُفهم هنا
يحمل شارعًا لا يُرسم على الخرائط
يحمل نبرةً كانت تُقال في المقاهي
وفي المساجد،
وفي طوابير الخبز

أُجيب
لكنني أُخون اللغة
وأُخون نفسي،
وأُخون اليرموك الذي علّمني أن الكلام ليس صوتًا
بل انتماء

لهجتي تُرتجف
لأنها تعرف أنني أخفيها كي أندمج
وأُخنقها كي أُقبل
وأُعدّلها كي لا تُخيف أحدًا

لكنها، رغم كل شيء
تُطلّ من بين الكلمات
كطفلٍ يُطلّ من خلف الباب
ويقول لي همسًا: "لا تنسَ
أنت من هناك،

من حيث كانت الحارة تعرف اسمك
قبل أن تعرفك الدولة

عدتُ ولم أعد

عدتُ إلى اليرموك

وفي قدمي ارتجافُ الغريب

وفي عيني خريطةٌ لا تُطابق الطريق

كل حجرٍ هنا كان يعرفني

لكنني لم أعد أعرفه

الزقاق الذي كنتُ أركض فيه

صار أضيق من ذاكرتي

والباب الذي كنتُ أطرقه

مُغلقٌ منذ سنواتٍ لا تُحصى

عدتُ

وفي قلبي حارةٌ تُصرّ على أنني ما زلتُ طفلاً

وفي الواقع

أنا رجلٌ يحمل حقيبةً

ملينةً بالصور التي لا تُشبه المكان

اليرموك نظر إليّ

كمن يُحدّق في وجهٍ مألوف

لكنّه تغَيَّر

كمن يُحاول أن يتذكّر الاسم

ولا يجروء على النطق به

عدتُ

لكنني لم أجد صوت جدتي
ولا رائحة الخبز
ولا ضحكة أخي في الزاوية
ولا جارتنا التي كانت تُربي الورد
في علبة طماطم فارغة

وجدتُ الركाम،

والصمت

والأبواب التي لا تُفتح
والوجوه التي غابت دون وداع

عدتُ

لكنني لم أعد

لأن العودة ليست جسداً يمشي
بل روحٌ تُصالح الغياب
ولأن اليرموك الذي يسكنني
لا يُشبه اليرموك الذي رأيته

أنا الآن بين مكانين: واحدٌ يسكنني

وآخرٌ لا يعرفني

واحدٌ يُناديني كل ليلة

وآخرٌ يُشيع بوجهه حين أمرّ

عدتُ،

لكنني أدرك الآن
أن بعض الأوطان لا تُستعاد
بل تُحمل كغصّة
وتُكتب كقصيدة
وتُبكي في صمتٍ طويل

سامحني لأنني نجوت

سامحني

لأنني خرجت من بين الركام
ولم أعد محمولاً على نعشٍ من الحنين
ولا ملفوفاً بعلمٍ لم يُرفرف يوماً فوق بيتنا

سامحني

لأنني عبرت الحدود
وفي جيبي صورةٌ لم تُحترق
وفي عينيّ دمعَةٌ لم تُذرف
وفي صوتي لهجَةٌ
ثُرتجف كلما ناداني أحدهم بلغةٍ لا تُشبهني

أنا الذي نجوت

لكنني لا أشبه الناجين
أحمل في صدري أسماءَ
غابت دون وداع
وأبواباً أغلقت قبل أن أودّعها
وحاراتٍ كانت تعرفني
قبل أن تُمحي من الخريطة

نجوت،

لكنني لا أحتفل

لأن النجاة ليست حياة

بل عبء يُقال في الليل
حين تُطفأ الأنوار
ويُفتح باب الذاكرة على مصراعيه

كلما ضحكت
أشعر أنني أخون من لم يضحكوا بعد
وكلما أكلت
أتذكّر من كانوا يُقسمون أن الخبز ليس حقًا
بل معجزة

سامحني
لأنني كتبت القصيدة
ولم أكتب على الجدار
لأنني قلت "أنا من اليرموك"
ولم أُدفن فيه

سامحني
لأنني نجوت
ولم أعد

خرائط اليرموك في قلبي
لا أملك خريطةً لليرموك
فالخرائط لا تُرسم بالدمع
ولا تُحدّد بالأزقة التي كانت تعرفني
قبل أن أعرف نفسي

اليرموك يسكنني
كوشمٍ لا يرى
كندبةٍ لا تُشفى
كأغنيةٍ لا تُغنى
إلا حين أكون وحدي

كلما فتحتُ حقيبتي
وجدتُ فيها شارع اليرموك
وصوت جدّتي في صلاة الفجر
ورائحة الزعتر من نافذةٍ
لم تعد تُفتح

كلما تحدّثت
ارتجفت لهجتي
كأنها تُقاوم المنفى
وتُصرّ على أنني من هناك
من حيث كانت الحارة تعرف اسمي
قبل أن تعرفني الدولة

كلما كتبت
سال الحبر من ذاكرة
لا تُريد أن تُشفى
ولا تُريد أن تُنسى
ولا تُريد أن تُسامحني
لأنني نجوت

اليرموك ليس مكانًا
بل طريقةً في الحزن
وفي الحب،
وفي الحلم الذي لا يُقال بصوتٍ عالٍ

هو بيتٌ لا يُغلق
وطفولةٌ لا تُنسى
وغصةٌ لا تُقال،
وحنينٌ يُوقظني
كلما ظننتُ أنني اندمجت
خرائط اليرموك في قلبي
لا تُطابق الجغرافيا
لكنها تُطابقني
تُشبهني
تُعرّفني حين أنسى من أنا

الوطن الذي لا يُرسم

الوطنُ ليس خطأً على الورق

ولا لوّنًا في أطلسٍ مدرسي

ولا علمًا يُرفرف فوق مبنى رسم

الوطنُ هو ما يبقى حين يُمحى كل شيء

هو ما لا يُرسم

لأنه لا يُختزل

هو صوتُ أمّي وهي تُنادي من الشرفة

هو رائحةُ الخبز في الصباح

هو ظلّ جدّي وهو يُحدّثني عن صفد

كأنها لم تغادره قط

الوطنُ هو الحارة التي تعرف اسمي

والباب الذي يُفتح قبل أن أطرقه

والجدار الذي يُخبّي أسرارِي

ولا يُفشيها حتى حين يُهدم

هو لهجتي حين ترتجف

هو حزني حين لا يفهم

هو ارتباكي في المطارات

حين يسألني أحدهم: من أين أنت؟

فأجيب، ولا أُجيب حقًا

الوطنُ هو ما لا يُقال
هو ما يُبكى عليه في صمت
هو ما نَحمله في جيوبنا
دون أن نُفصح عنه

هو الركّام الذي يُحدّق بي
كأنه يعرفني
هو القصيدة التي لا تُكتب
إلا حين نُغلق الباب
ونُصغي للذاكرة وهي تُعيد ترتيبنا

الوطنُ الذي لا يُرسم
هو الذي لا يُنسى
ولا يُباع
ولا يُعاد بناؤه بالحجارة
بل بالحروف
وبالحنين،
وبالوجوه التي غابت دون وداع

حين تُصبح القصيدة بيتًا

حين يغيب البيت
ولا يبقى من الجدران سوى ظلّ الذاكرة
تُمدّ القصيدة يدها
وتقول لي: تعال
هنا نافذة تطلّ على الحنين
وهنا باب يُفتح على صوت أمّك وهي تُناديك
من زمنٍ لم يعد

حين تُصبح القصيدة بيتًا

لا أحتاج إلى مفتاح
ولا إلى عنوان
يكفيني أن أغلق عينيّ
وأمشي في سطرٍ
يشبه الزقاق الذي كنتُ أركض فيه
قبل أن تُغلقه الحرب

في القصيدة

أعيد ترتيب اليرموك كما أحبه
أعيد بناء الحارة من الحنين
وأعلق صور الغائبين
على جدرانٍ من الحبر
وأشعل قهوةً برائحة الزعتر
وأصغي لصوت جدّتي

وهو يرتل دعاءً

لا يُنسى

القصيدة لا تُطالبني بجواز سفر

ولا تُسألني عن أوراق

ولا تُصحّ لهجتي

هي تعرفني من نبرة حزني،

ومن ارتجافة اسمي حين يُقال

حين تُصبح القصيدة بيتاً

أقيم فيها كما يُقيم المنفي في ذاكرته

أصلي فيها كما يُصلي الغريب في لغته

وأبكي فيها كما يبكي الناجي

حين يتذكّر من لم ينجُ

القصيدة لا تُشبه اليرموك

لكنها تُشبهني فيه

تُشبه وجهي حين أُطلّ من نافذة الغربية

وأبحث عن شارع اليرموك

في صفحةٍ بيضاء

حين تُصبح القصيدة بيتاً

أعرف أنني لم أُغادر حقاً

وأنني، مهما ابتعدت

أحمل الوطن في كل كلمةٍ

وفي كل سطرٍ
وفي كل ارتجافة حبر

أمي التي غابت خارج المخيم

أمي لم تُدفن في اليرموك

لم تُودّع الحارة التي كانت تُناديني منها

ولا الشرفة التي كانت تُرَبّي فيها الريحان

ولا الجيران الذين كانوا يعرفون صوتها

قبل أن يعرفوا اسمها

غابت في مكانٍ لا يعرف لهجتها

ولا يُشبه يديها

ولا يُصغي لدعائها

حين كانت تُصلي

كأنها تُخاطب الله

من بين الركाम

أمي ماتت

لكنني لا أُصدّق

لأنني لم أُقبَل جبينها الأخير

ولم أُغلق عينيها بيدي

ولم أُخبرها أنني

ما زلتُ أبحث عن بيتٍ يشبه صوتها

في الغربة

كل شيء بارد

حتى الموت، حتى الحزن

حتى التراب الذي احتواها
ولم يعرف كم كانت تُحبّ الزعر
وكم كانت تُربّي الحنين في عينيها
كأنّه طفلٌ لا يكبر

أمي،
حين غابت
أخذت معها رائحة البيت
وصوت الملاعق في المطبخ
وارتباكي حين أخطئ
فأنتظر عتابًا لا يأتي

أمي
لم تُدفن في اليرموك
لكنها تسكنه
في كل زاوية
في كل دعاء
في كل ارتجافة حنين
حين أُعدّ القهوة وحدي

أحدثها كل ليلة
كأنها لم تغب
أقول لها: سامحيني لأنني لم أكن هناك
سامحيني لأنني نجوت
ولم أمسك بيدك حين ارتجفت

أمي
يا أول وطنٍ عرفته
ويا آخر بيتٍ فقدته
أكتبك الآن لأعيدك إليّ
ولو قصيدة

أبي الذي غاب خارج المخيم

أبي لم يُدفن في اليرموك

لم يُودّع الزقاق الذي كان يعرف خطاه

ولا الجدار الذي كان يُسند عليه تعبته

ولا المسجد الذي كان يُصلي فيه بخشوعٍ

يشبه صمت الجبال

غاب في أرضٍ لا تعرف اسمه

ولا تُدرك كم كان يُحبّ أن يُربّي الصبر في قلبه

ولا كم كانت فلسطين تسكن في نبرته

حين يُحدّثنا عن صفد

كأنها لم تغادره قط

أبي

كان يُشبه الحارة التي لا تُغلق أبوابها

كان يُشبه الخبز الساخن في الصباح

كان يُشبه اليد التي لا تُرتجف حين تُمسك بنا

في الزحام

حين مات

لم أكن هناك

لم أُمسك بيده

لم أخبره أنني

ما زلتُ أبحث عن وجهه

في كل رجلٍ يُشبهه في الصمت
وفي الحزن
وفي الكرامة التي لا تُقال

أبي

كان الوطن حين ضاقت الأوطان
وكان البيت حين تكسّرت البيوت
وكان القصيدة التي لا تُكتب
لأنها تُقال في القلب
ولا تُقال في الورق

المنفى لا يعرف كيف يُودّع الآباء
يُسَلِّمهم للتراب دون أن يسألهم
عن آخر حلمٍ خبّأوه
وعن آخر دعاءٍ قالوه
وعن آخر نظرةٍ
كانت تبحث عنّا في الغياب

أبي

لم يُدفن في اليرموك
لكنني أراه كلما مررتُ بشارع اليرموك
كلما سمعتُ صوت المؤذن
كلما ارتجفت لهجتي
كلما كتبتُ عن وطنٍ
كان يُشبهه

أبي
يا أول ظلِّ حماني
ويا آخر جذرٍ اقتلع
أبي
يا صمّتًا كان يُعلّمني كيف أكون
ويا ظلًّا لا يزال يحرسني من بعيد
لم أكتبك لأُعيدك
بل لأتعلّم كيف أعيش
وأنت لست هنا
وكيف أكمل الطريق
وأنا أفقد اليد التي كانت تُشير نحوي
وتقول: امض، ولا تخف

أخي الذي غاب قبل أن أراه
لم أودّعك

ولا رأيته تكبر
ولا سمعتُ صوتك يختلط بصوتي
في ضحكةٍ واحدةٍ
كنا نحلم بها منذ الطفولة

كنتَ أخي الوحيد
والغربة كانت بيننا كجدارٍ لا يُهدم
كصمتٍ لا يُكسر
كنداءٍ لا يُجاب

كبرتُ هنا، وكبرتَ هناك
وفي المنتصف كانت المسافة تُراكم الغياب
وتُعلّق اللقاء على حبلٍ لا يصل

كنتُ أحدّثك في خيالي
أخبرك عن اليرموك
عن الحارة التي كانت تعرفنا
عن أمّنا التي كانت تُناديكما معًا باسمٍ واحد
كأنكما ظلّان لا ينفصلان

لكنني لم أُمسك بيدك
ولا شاركتك الخبز

ولا اختلفنا على شيءٍ صغير
ثم تصالحنا كما يفعل الإخوة

وحين جاء خبر موتك
لم أُصدّق
لأنني كنتُ أعدّ اللقاء
كنتُ أخطّط لضحكةٍ تُعيد ترتيب العمر
كنتُ أجهّز قلبي
لأن يقول لك
تأخّرنا، لكننا عدنا

لكنك غبت
وغبتَ في مكانٍ لا أعرفه
ولا يعرفني،
ولا يعرف كم كنتَ
الركن الوحيد الذي بقي لي من البيت

أخي
يا من كنتَ بعيدًا ثم أصبحتَ أبعد
يا من لم أُصافحك حيًّا
ولا ميتًا
ولا في الحلم

أحدّثك الآن كأنك تسمعني
كأنك تُرَبّت على قلبي من بعيد

كأنك تقول لي :أنا هنا، فيك

لا في التراب

أُبكيتك، لا لأنك متّ

بل لأنك متّ قبل أن نلتقي

قبل أن تُعيد ترتيب الذاكرة

قبل أن تُخبر الغربة أنها لم تنتصر

أخي

يا وجهي الآخر

يا ظليّ الذي لم أُمسك به

يا صوتي الذي لم أكتمل به

يا ملامحي التي لم تكتمل

يا غصّة لم تُقال

يا لقاء ظلّ مؤجّلاً حتى الموت

لا أكتبك لأعيدك

بل لأبني لك مكاناً في اللغة

لأن الحياة لم تمنحك مكاناً في ذراعي

عمّتي التي كانت أمّي حين غابت الأم

عمّتي،

يا يداً كانت تُربّت على حزني دون أن تسألني لماذا

يا ظلّاً كان يُرافقني في الغربة

دون أن يُعلن حضوره

كنتِ أمّي الثانية

لكنكِ لم تطلبي هذا اللقب

كنتِ تُحبّين بصمت

وتُعطين دون أن تُحصي

وتُربّين الحنان في بيتٍ

كان ضيقاً على الدنيا

واسعاً على القلب

غبتِ

وغاب معك شيءٌ لا يُسمّى

غاب صوتكِ الذي كان يُشبه الدعاء

وغابت نظرتكِ التي كانت تُشبه الوطن

حين يُطمئن الغريب

لم يكن لكِ حظٌ كبير في الدنيا

لكنكِ كنتِ كنزاً في حياتي

كنزاً لا يُرى

ولا يُقاس، ولا يُشتري

كنتِ تُضحكيننا وأنتِ تُخفي وجعك

كنتِ تُطعميننا وأنتِ تُجوعين

كنتِ تُثيرين البيت

وأنتِ تُطفئين نفسك

ببطءٍ لا يُلاحظ

وحين متّ

لم يكن في الجنازة من يعرف

أنكِ كنتِ وطنًا صغيرًا لي

أنكِ كنتِ أمًّا حين غابت الأم

وأنكِ كنتِ الحنان الذي لا يُقال

لأنه يُشعر ولا يُشرح

أُبيكِ الآن

لا لأنكِ غبتِ

بل لأنكِ غبتِ دون أن تعرفي كم كنتِ عظيمة

كم كنتِ بيتًا

كم كنتِ دعاءً يُقال في القلب

ولا يُنسى

عمّتي،

يا من كنتِ تُخفي وجعكِ خلف ابتسامة

وثرّبين الحنان في بيتٍ ضيق على الدنيا

واسع على القلب.

لم تُنصفكِ الحياة

لكنا أنصفتنا بحبك الذي لا يُقاس
غبت، لكنا تركت فينا نوراً لا يُطفأ
وصوتاً لا يُنسى
وظلاً يُربّت على أرواحنا كلما ضاقت بنا الغربة
لا أكتبك لأعيدك
بل لأبقىك حيّة في القصيدة
كما كنت حيّة فينا
دون أن تطلبي شيئاً
ودون أن تُعَلني حضورك
لأن الحنان الحقيقي لا يحتاج إلى إعلان

نافذة كانت تطلّ على الحياة

كانت نافذتنا صغيرة

لكنها كانت تطلّ على العالم

منها كنا نُراقب الغيم

ونحسب كم خطوة تفصلنا عن فلسطين

كانت أمّي تُعلّق على حافّتها قميص أبي

كأنها تُعلن أنه سيعود، ولو بعد حين

كنا نُطلّ منها على الحارة

نُراقب الجيران

نُعدّ ضحكات الأطفال

ونُخبّي أحلامنا في زوايا الزجاج

ثم جاء الغياب، وأُغلقت النافذة

لا لأننا أردنا، بل لأن الحياة أصبحت تُطلّ علينا من جهةٍ لا نعرفها.

الآن، كلما فتحتُ نافذةً في المنفى

أبحث عن تلك الصغيرة

عن قميص أبي

عن صوت أمّي

عن الغيم الذي كان يُشبهنا

كبرتُ قبل أن أكبر

في اليرموك

لم تكن الطفولة وقتاً

كانت نجاهة مؤقتة

وكانت الضحكة تُقال

كمن يُراوغ الغياب

كنا نلعب في الزقاق

لكننا نراقب السماء

كأننا ننتظر شيئاً لا نعرفه

ولا نُسمّيه، لكننا نخافه

كبرتُ قبل أن أكبر

لأن الحرب كانت تُعلّمني

أن الحلوى لا تُشترى

بل تُنتظر من الجار

الذي يُقسم أن الغد سيكون أفضل

كبرتُ لأن أبي كان يُخفي حزنه

في صوتٍ خافت

ولأن أمي كانت تُربّي الأمل

في طبقٍ لا يكفي الجميع

كبرتُ، لكنني لم أكمل اللعب

ولا حفظتُ أسماء أصدقائي

لأنهم غابوا واحداً تلو الآخر
كأنهم كانوا يُدرّبوننا على الفقد

اليرموك علّمني أن أضحك
وأنا أخبئ دمع
وأن أحبّ وأنا أودّع
وأن أكتب لأن الكلام لا يكفي

كبرتُ
لكنني ما زلتُ أبحث عن نفسي في صورةٍ قديمة
وفي صوتٍ من بعيد
وفي زقاقٍ لم يعد كما كان

طفولتي التي لم تكتمل

في اليرموك

كانت الطفولة تُختصر في لحظة

في ضحكة تُقال بسرعة

قبل أن يأتي القصف

قبل أن يُغلق الجار نافذته

قبل أن تُنادي الأمّ على أولادها

وتُخفي خوفها في صوتٍ حازم

كنا نلعب

لكننا نراقب السماء

كأننا نعرف أن الغيم

قد يحمل شيئاً غير المطر

كنا نضحك

لكننا نُصغي لصوت الراديو

ننتظر خبراً لا نُريد سماعه

ونُراوغ الحزن بكرةٍ من قماش

وبأملٍ هشّ

كخبزٍ لا يكفي الجميع

كبرتُ، لكنني لم أكمل اللعب

ولا حفظتُ أسماء أصدقائي

لأنهم غابوا واحداً تلو الآخر

كأنهم كانوا يُدربوننا على الفقد

كبرتُ، لكنني ما زلتُ
أبحث عن نفسي في صورةٍ قديمةٍ
وفي صوتٍ من بعيدٍ،
وفي زقاقٍ لم يعد كما كان

طفولتي لم تكتمل
لأنها كانت تُختصر دائماً في لحظة نجاة
وفي سؤالٍ لا يُقال
هل سنعيش حتى الغد؟

المدرسة التي لم تكتمل

كانت المدرسة في اليرموك

أقرب إلى الحلم منها إلى البناء

جدران متعبة

سبورة لا تمحو الحزن

وأقلامٌ تُكتب بها الأمل

ثم تُكسر

كنا نذهب إليها كمن يُراوغ الغياب

نحمل حقائب أكبر من أجسادنا

ونُخبئ فيها رغيًا صغيرًا

وصورةً لفلسطين

مُعلّقة في الصفحة الأولى

كانت المعلمة تُحدّثنا عن الوطن

وعن الأمل، وعن الغد

لكن صوتها كان يرتجف

كأنها تعرف أن الغد قد لا يأتي

كنا نُردّد النشيد

ونُخطئ في الكلمات

لكننا نُحسن البكاء

حين يُقال اسم البلاد

ثم جاء القصف

وغابت المدرسة
وغابت السبّورة
وغابت المعلمة
وغاب الدرس الذي لم تُكمّله

كبرنا، لكننا لم نُنهِ الصف
ولا حفظنا جدول الضرب
ولا كتبنا موضوع التعبير
عن "كيف قضيتُ العطلة"،
لأن العطلة كانت موتًا مُوجَّلاً
وكانت الحياة تُختصر في سؤالٍ واحد
هل سنعود غدًا؟

المدرسة لم تكن مكانًا
كانت وعدًا
وكانت نجاهً مؤقتة
وكانت وطنًا صغيرًا تُردّد فيه اسم فلسطين
قبل أن نعرف كيف نُهجّئه
الآن
كلما رأيتُ طفلًا يحمل حقييته
أبكي
لأنني لم أكمل الدرس
ولأن المدرسة التي أحببتها ماتت
قبل أن تُعلّمني
كيف أحبّ الحياة

الغروب في المخيم كان يُشبه الوداع

في اليرموك

كان الغروب لا يُشبه الغروب

كان يُشبه وداعًا صغيرًا

يتكرّر كل مساء

كأن الشمس تُغادرنا

وفي قلبها حزنٌ لا يُقال

كنا نراقبها من فوق السطح

نعدّ اللحظات

ونُخبّي آمنياتنا في الضوء الأخير

كأننا نعرف أن الليل لا يأتي وحده

بل يحمل معه شيئًا من الغياب

كانت أمي تُسرع في إعداد العشاء

كأنها تُراوغ الوقت

كأنها تُخفي خوفها

من ليلٍ لا يُطمئن أحدًا

وكان أبي يُصغي للراديو

كأنه ينتظر خبرًا

لن يُقال

وكانت الحارة تُغلق أبوابها

واحدًا تلو الآخر

كأنها تُودِّعنا

قبل أن نودِّعها

الغروب في المخيم

لم يكن لونا

كان شعورًا

كان ارتجافًا في القلب

كان سؤالًا لا يُجاب:

هل سنُكمل الليل؟

هل سيأتي الصباح؟

هل سنبقى؟

الآن

كلما رأيتُ غروبًا في المنفى

أبكي

لأن الشمس هناك كانت تُشبهنا

تُغادر بصمت

ولا تعد بالعودة

صوت المؤذن الذي لا يُجاب

في شارع اليرموك
كان صوت المؤذن يُشَقِّ الصمت
كأنه نداءً من زمنٍ لا يعود
كأنه يُوقظ فينا شيئاً أعمق من النوم
وأقرب إلى الحنين

كنا نُصغي له من فوق السطح
نُردّد خلفه بصوتٍ خافت
ونُخبّي دعاءنا في صدرٍ صغير
لا يعرف كيف يُقال الحزن
لكنّه يعرف كيف يُصغي له

كان صوت المؤذن
يُشبه أبي حين يُصلي
ويُشبه أمي حين تُبكي دعاءها
ويُشبه اليرموك حين يُغلق أبوابه
ويُسلّم الليل للغائبين

ثم جاء القصف
وغاب الصوت
وغابت المئذنة
وغابت الصلاة التي كانت تُطمئننا
أن الله لا ينسى المخيم

الآن
في المنفى
كلما سمعتُ الأذان
أبكي
لأن الصوت لا يُشبهه
ولأن النداء لا يُجاب
ولأنني كنت أحب أن يسمعني الله
حين أُصَلِّي
من مكانٍ لا يعرفني

صوت المؤذن في شارع فلسطين
كان أكثر من نداء،
كان وطنًا يُقال خمس مرات في اليوم،
وكان وعدًا أننا
رغم كل شيء
ما زلنا هنا
لكننا لم نعد

والصوت غاب
والشارع غاب
والدعاء يُقال الآن
من خلف زجاج بارد
ومن قلبٍ
لا يعرف كيف يُشفى

الباب الذي أُغلق ولم نعد

كان باب بيتنا في اليرموك
لا يُغلق إلا حين ننام
وكان يُفتح قبل أن نطرقه
كأنّه يعرف وقع أقدامنا
ويُميّز بين ضحكتنا وخطانا المتعبة

كان الباب يُصغي لصوت أمّي
وهي تُنادي علينا من المطبخ
وكان يُرَبّت على حزن أبي
حين يعود متعباً
من يومٍ لا يحمل خبزاً كافياً

كان الباب يُحبّنا
كما تُحبّ الحارة أولادها
وكان يعرف أسرارنا
ويُخبّئها في خشبه
كأنّه يُقسم أن لا أحد
سيبوح بها

ثم جاء الغياب
وجاء القصف
وجاء الليل الذي لا يُشبه النوم

وأغلق الباب

لا لأننا أردنا

بل لأننا لم نعد

أغلق الباب،

وبقي واقفاً

كمن ينتظرنا

كمن يُحدّق في الطريق

ويقول: "أين ذهبوا؟

لماذا تأخّروا؟

هل نسوني؟"

الآن

كلما رأيتُ باباً في المنفى

أصغي له

كأنّه يُشبهه

لكنّه لا يعرفني

ولا يعرف صوت أمّي

ولا يعرف ارتجافة يدي

حين أمسك بالمقبض

باب بيتنا في اليرموك

كان أكثر من خشب

كان ذاكرة

وكان أماناً

وكان وطنًا صغيرًا
نُغلقه على أنفسنا ونقول:
نحن بخير، ما دمنا هنا

لكننا لم نعد
والباب أُغلق
والبيت غاب
والأمان أصبح قصيدة

بين هناك وهنا

أنا من هناك

لكنني لا أملك ورقةً تُثبت ذلك

ولا مفتاحًا يُفتح بابًا غاب

ولا لهجةً تُقال دون ارتجاف

أنا من اليرموك

لكنني أعيش في مكانٍ

لا يعرف كيف يُنطق اسمي

ولا لماذا أبكي حين أسمع صوت المؤذن

ولا لماذا أصغي للغروب

كأنه نداءٌ من بيتٍ

لم أعد إليه

الحنين لا يُشفى

لأنه لا يُعالج بالوقت

ولا يُنسى بالمسافة

ولا يُخدّر بالاندماج

هو جرحٌ يُقال في اللحم

ويُوقظني كلما ظننتُ

أنني تأقلمت

هويتي تتشظى

بين لهجةٍ أُخفيها
وصورةٍ لا تُشبهني
وبطاقةٍ تُعرِّفني
دون أن تُعرِّفني حقًا

أنا من هناك
لكنني هنا
وفي المنتصف أحمل حقيبةً
لا تتسع لليرموك
ولا لفلسطين
ولا لطفولتي التي لم تكتمل

كلما سألني أحدهم:
من أين أنت؟
أجيب
لكنني لا أجيب حقًا
أُخفي نفسي في جملةٍ لا تُشبهني
وأرتّب الحنين في جيبٍ داخلي
كي لا يُفضح

أنا من هناك
لكنني لا أعود
ولا أشفى
ولا أندمج
ولا أنسى

أنا من هناك
لكنني أكتب
لأن الكتابة
هي الوطن الوحيد
الذي لا يُغلق بوجهي

معنى الوطن

الوطن ليس علمًا
ولا نشيدًا يُردّد في الطابور
ولا حدودًا تُرسم على الخرائط

الوطن هو ما يبقى
حين يُمحي كل شيء
هو ما لا يُقال
لكنّه يُبكي عليه في الليل
حين تُغلق الأبواب
ويُفتح باب الذاكرة

الوطن هو يد أمي
وهي تُربّت على ظهري
هو صوت أبي
وهو يُخفي حزنه في صمتٍ طويل
هو الحارة التي تعرف اسمي
قبل أن تعرفني الدولة

الوطن لا يُعرّف
بل يُحسّ،
ولا يُكتب،
بل يُنزف

فلسطين التي تسكننا

فلسطين ليست مكاناً

بل فكرة

ووجع لا يُشفى

وحلم لا يُقال إلا همساً

لأن الصوت قد يُخيف

من لا يعرفها

فلسطين تسكن في لهجتي

في ارتبائي حين أُجيب

في دمة لا تُقال

وفي صورة قديمة

لا يعرفها أحدٌ غيري

فلسطين لا تُحرّر فقط

بل تُستعاد في كل قصيدة

وفي كل صلاة

وفي كل ارتجافة قلب

حين يُقال اسمها

المخيم كرمز

المخيم ليس مكانًا

بل حالة

هو بيتٌ مؤقت

صار دائمًا

وهو جدارٌ هشّ

يحمل عليه الناس أحلامًا

أثقل من الإسمنت

المخيم هو اليرموك

هو النيرب، والعائدين

هو جرمانا، وخان الشيخ

هو عين الحلوة، ونهر البارد

هو كل مكانٍ

قليل لنا إنه مؤقت

ثم أصبح كل ما نملك

المخيم هو الرمز

لأننا لم نُغادره

حتى حين غادرناه

ولأننا نحمله في لهجتنا

وفي حنيننا

وفي ارتباكنا حين نُقال:

من أين أنت؟

الكتابة بوصفها عودة

أنا لا أكتب لأبدع

بل لأعود

كل قصيدة هي خطوة

نحو بيتٍ غاب

وكل سطرٍ هو محاولة

لإعادة بناء غرفةٍ

كانت تُشبه قلبي

الكتابة ليست فناً

بل نجاة

هي الطريقة الوحيدة

لأمسك بيد أبي

وأصغي لصوت أمي

وأعيد ترتيب اليرموك كما أحبه

وكما تركته

أنا أكتب

لأنني لا أملك مفتاحاً

ولا جواز سفر

ولا بيتاً

أكتب

لأن القصيدة

هي الوطن الوحيد
الذي لا يُغلق بوجهي

اليرموك الذي لا يُمحي

اليرموك ليس مخيمًا

بل ذاكرة

بل طريقة في الحزن

وفي الحب

وفي الحلم الذي لا يُقال بصوتٍ عالٍ

اليرموك يسكنني

كوشمٍ لا يُرى

كندبةٍ لا تُشفى

كأغنيةٍ لا تُغنى

إلا حين أكون وحدي

كلما فتحتُ حقيبتني

وجدتُ فيها شارع الثلاثين

وصوت أمي

ورائحة الزعتر

وارتجافة لهجتي حين أُجيب

اليرموك لا يُمحي

لأنه لا يُكتب بالحب

بل بالدم

ولا يُرسم على الخرائط،

بل في القلب

اليرموك لا يُنسى

اليرموك ليس شارعًا
ولا خريطة تُطوى في كتاب
ولا اسمًا يُقال في نشرة الأخبار
اليرموك هو ارتجافٌ في القلب
حين تمرّ رائحة الزعتر
من نافذةٍ لا تُشبهه
هو ارتباكُ اللغة
حين تُسأل: من أين أنت؟

اليرموك لا يُمحي
لأنه لا يُكتب بالحبر
بل بالدم
ولا يُحفظ في الذاكرة
بل يُحمل في العظام
كوصيةٍ لا تُقال
لكنها تُوجّه الخطى

في اليرموك
كان الغيم يُعلّق فوقنا
كأنه ينتظر أن نبكي
وكانت الحجارة تعرف أسماءنا
وكانت الجدران تُصغي

لأحاديثنا الصغيرة عن فلسطين
كأنها تُخبئها لنا في شقوقها

اليرموك لا يُمحي
لأنه لم يكن مكاناً
بل طريقتنا في الحزن
وفي الحب
وفي النجاة التي لا تُحتفل بها

كلما كتبت
أُعيد بناءه
لا كما كان
بل كما يسكنني:
بأبوابٍ تُفتح قبل الطرق
وبضحكاتٍ تُقال رغم التعب
وبأمهاتٍ يُخفين الخوف
في دعاءٍ لا يُسمع
إلا حين يُغلق الليل علينا

اليرموك لا يُمحي
لأنه لا يُغادرنا
حتى حين نغادره
ولا يُنسى
حتى حين نُجبر على النسيان

هو ظلُّ يتبعنا
وصوتٌ يُنادينا من بعيد
وحنينٌ لا يُشفى
لأن بعض الأماكن
لا تُغادر القلب
بل تُصبحه

حين تكتبك الورقة قبل أن تكتبها

أنا لا أكتب

الورقة هي التي تكتبني

تُعيد ترتيب وجهي

كما كان قبل الغربة

وتُعيد لي اسمي

قبل أن يُقال بلغةٍ لا تُشبهني

الكتابة ليست فعلاً

بل عودةٌ بلا طريق

هي الباب الذي لا يُفتح

لكنني أعبره كل ليلة

دون أن يراني أحد

كلما كتبت

أشعر أنني أتنفّس

من رئةٍ أخرى

من زمنٍ لا يُقاس بالساعات

بل بالحنين

الكتابة لا تُشبه الوطن

لكنها تُشبهني فيه

تُشبه ارتباكي حين أعرف نفسي

تُشبه لهجتي حين ترتجف

تُشبه ظلي حين لا يعرفني أحد

أنا لا أكتب لأعبر

بل لأتذكر

لأعيد بناء نفسي

من شظايا لا تلملمها الحياة

ولا يُداويها الوقت

الكتابة هي ملاذي

حين لا أجد بيتاً

ولا وجهاً مألوفاً

ولا لغةً تُطمئنني

هي الغرفة التي لا تُغلق

والنافذة التي تُطلّ على اليرموك

دون أن تُشبهه

لكنها تُشبهني فيه

كلما كتبت

أشعر أنني أعود

لا إلى المكان،

بل إلى نفسي

قبل أن تُكسر

اللغة التي تسكنني حين لا يسكنني أحد

حين ضاق بي المنفى

ولم يعرفني أحد

ولم تُجِبنِي البلاد التي عبرتها

سكنتُ اللغة

لم أطلب منها شيئاً

لكنها فتحت لي باباً لا يُغلق

ونافذة تطلّ على اليرموك

كما كان في قلبي

لا كما صار في الخرائط

اللغة لا تُسأل عن أوراق

ولا تُصحّ لهجتي

ولا تُربكني حين أقول:

أنا من هناك، لكنني هنا

وفي المنتصف

أحمل نفسي كغريب

لا يعرف أين يضع اسمه

كلما كتبت

أشعر أنني أعيد ترتيب وجهي

وأعيد بناء ظلي

وأعيد رسم خريطةٍ لا تُشبه الأرض
لكنها تُشبهني

اللغة لا تُشبه الوطن
لكنها تُشبه الحنين إليه
تُشبه ارتباكي حين أصغي لصوتي
وتُشبه ألمي حين أترجم نفسي
إلى كلماتٍ لا تُقال إلا في الليل

أنا لا أكتب لأعبر
بل لأتواري
لأختبئ في سطرٍ
لا يُشير إليّ مباشرة
لكنّه يعرفني
أكثر من جواز سفري

اللغة هي مأواي حين لا مأوى
هي بيتي الذي لا يُقصف
ولا يُغلق، ولا يُنسى

هي أُمي حين غابت
وأخي حين لم أودّعه
والمخيم حين لم أعد إليه

اللغة تسكنني

حين لا يسكنني أحد

وتُعبدني إليّ

حين أضيع في وجوه

لا تُشبهني

المنفى لا يُعرّفني، لكنه يُشبهني

في المنفى

لا أحد يسألني من أنا

لكنني أُجيب طوال الوقت

كأنني أحاول أن أقنع نفسي

أنني ما زلت أنا

أعرّف نفسي بجملة طويلة

كأنني أخفي شيئاً في نهايتها

كأنني أراوغ السؤال الحقيقي:

من أين تنتمي؟

لا أين وُلدت

أحمل اسمي كحقيقة قديمة

مُهرثة، لكنني لا أبدّلها

لأنها الوحيدة التي تُشبهني

حين لا يُشبهني أحد

المنفى لا يُعرّفني

لكنه يُشبهني

في ارتباك، وفي صمته

وفي محاولته أن يُعيد ترتيب نفسه

كل صباح دون أن ينجح

أكتب

لا لأُعرِّف نفسي

بل لأُبقّيها حيّة

كأنني أُخيطها من كلماتٍ

لا تُقال في الضوء

ولا تُفهم في القاموس

لكنها تُنقذني من الدوبان

اللغة هي مرآتي

لكنها مشروخة

كلما نظرتُ فيها

رأيتُ وجهي كما كان

قبل أن يُقال لي:

أنت من هناك، لكنك هنا

فكن شيئاً بين الاثنين

أو لا تكن

أنا أكتب لأُعيد بناء نفسي

من شظايا لا تُلملمها الحياة

ولا يُداويها الوقت

ولا يُصدّقها أحد.

أنا أكتب لأنني لا أُجيد الصمت

ولا أملك وطنًا

ولا أُجيد النسيان

الحنين الذي يسكنني أكثر من نفسي

أنا لا أعِي

أنا أحنّ

كل صباحٍ هو محاولةٌ لإعادة وجهٍ غاب

وصوتٍ لم يُودّعني

وبيوتٍ لم أُغلق أبوابها بنفسي

أعدّ القهوة

لكنني أصغي لصوت أمي

وهي تُحرّك السكر

في كوبٍ لم يعد موجودًا

أُفتح النافذة، لكنني لا أرى المدينة

أرى اليرموك

كما كان، كما لم يعد

كما يسكنني أكثر من نفسي

الحنين ليس شعورًا

بل نظام حياة

أرتّب يومي حوله

أصغي له أكثر من الناس

وأصدّقه أكثر من الأخبار

أُحاور الغياب

كأنه جارٌ قديم

أخبره بما حدث
وأعتذر له لأنني نجوت

أُكتب
لا لأعبر، بل لأبقيهم هنا
الذين غابوا
الذين لم أودّعهم
الذين كانوا يُشبهونني
قبل أن أصبح هذا الغريب

الحنين يسكنني
كندبة لا تُشفى
كظل لا يُفارقني
كاسم لا يُقال في الضوء
لكنه يُنادي عليّ
كلما ظننت أنني تأقلمت

أنا لا أعيش
أنا أحنّ
وأعيد ترتيب الغياب
كأنه بيت أُقيم فيه
وأُغلق بابه
كل مساء على نفسي
وعلى من لم يعودوا

حين ضاق بي ظلّي

حين ضاق بي ظلّي

تمنيتُ أن أكون صدّي

كي لا يُسأل الصوتُ عن وجهه

ولا يُحاسب الحنينُ على ارتجاعته

أُراوغ المسافة

كمن يُخفي خيبته في جيبٍ مثقوب

وأصغي للريح كأنها

تُعيد لي اسمي

من زمنٍ لم أُولد فيه بعد

البيوت التي عبرتها لم تُشبهني

والأبواب التي طرقتها

كانت تُفتح على فراغٍ يُشبهني

أكثر من وجهي

قالوا: تريث

فالحزن لا يُكتب في العجلة

لكنني كنتُ أنزف من جهةٍ لا تُرى

وأخبئ دمعتي في سطرٍ لا يُقرأ

إلا في الليل

كلما حاولتُ أن أعرف نفسي

أخطأتُ في النطق
وفي التوقيت
وفي اللغة
أنا ظلُّ يبحثُ عن جسده
وصوتُ يُراوغُ الصدى
وحزنٌ يكتبني
قبل أن أكتب القافية

نُدبة

نُدبة الغيم

الغيمُ لا يعتذر
حين يُسقط ظلاله على الراحلين
يبسطُ بلادَةً في الضوء
كأنه لا يعرف أن المطر
قد لا يُنقذ أحدًا

أصغي لارتجافة السماء،
كمن يُترجم شهقةً من لغةٍ لا تُكتب
وأُخبئ وجهي في جفن القصيدة
كي لا يراني الغياب

الخطى تُغلق نفسها
كأبوابٍ خائفة
والريحُ تُعيد ترتيب البياض
ككفنٍ لا يعرف لمن كُتب

نُدبة الغربة

لم يكن من الرحيل بد
لكنني لم أُجهّز وجهي للغياب
أسلمته للصفصاف
كي يُربّي فيه انكسارًا
لا يُرى

الشمس أغمضت فمها
والرملُ لم يكن عشبًا
ولا وطنًا
ولا حتى عزاءً

قرأتُ هزائمي كما يشتهي المنفى
لا كما أحتمل
وكلما نظرتُ في مرايا المطر
رأيتُ موتي يُعيد نفسه ب
لا ملامح

نُذبة الطريق

الدربُ أعمى من فرط الانتظار
يلفظ أنفاسه كمن يُسجّل اعتراضًا
بعد الموت

الندى يتربّع كوضوءٍ
على لاهوتٍ يرتجف
والتراب يزدهم بي
كأنني لم أُولد بعد

نُذبة الخطى

حين تفقد الأسماء ظلّها
تتسطّح المسافة

وَتُصْبِحُ الْمَدَنَ وَجُوهًا لَا تُجِيبُ

قَلْبِي مَسْفُوحٌ عَلَى عَتَبَةٍ

لَا تُصَلِّي

وَعَيْنَايَ تُعِيدَانِ رَسْمَ الطَّرِيقِ

كَأَنَّهُمَا لَمْ تَعْرِفَاهُ مِنْ قَبْلِ

نُدْبَةُ الْفَرَاغِ

الْمَاءُ الْمَتَعَبُ يَغْفُو بَيْنَ وَطْءِ الْعَابِرِينَ

وَالنَّهْرُ يُعِيدُ نَفْسَهُ كَجَمَلَةٍ نَاقِصَةٍ

الْعَتَمَةُ الصَّغْرَى تُرَبِّي فِي شَرْخًا بِلَا لَوْنِ

وَالْغَيْمُ يُعِيدُ بِلَادَتَهُ

كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَنِينَنَا.

الظل حين يُصاب بالدوار

لم يكن الضوءُ عدوّه
ولا الجدارُ مأواه
لكنّه ظلُّ أُصيب بالدوار
حين تغيّر شكلُ الجسد

كان يتبعني كمن يُعيد لي اسمي
ثم بدأ يتعثّر، يرتبك
ينكمش في الزوايا
كمن يخجل من نفسه

الظلّ لا يتكلم
لكنني سمعته يبكي
حين مررتُ بجانب مرآةٍ لا تعرفني

أصغي لخطاه المرتجفة
كأنّه يُعيد ترتيب حزني على الأرض
كأنّه يُحاول أن يُقنع الضوء أنني ما زلتُ أنا.
لكنني تغيّرت

والجسد لم يعد كما كان
والأسماء تُقال كأنها لا تخصني
الظلُّ أُصيب بالدوار
لأنه لم يجدني

ولأنني لم أعد أبحث عنه

القصيدة التي تُنكر اسمها حين يُقال

كلما ناديتها أدارت وجهها

كأنّ الاسم لا يشبهها

كأنّ الحرف خيانةٌ صغيرة

في دفترٍ لا يُغلق

القصيدة لا تُحبّ الضوء

ولا تُجيد الوقوف على المنصّات

هي ندبةٌ تُقال في الليل

وتمحى في الصباح

كلما كتبناها أعادت ترتيب نفسها

غيّرت القافية

أخفت المعنى

كأنّها تراوغي لأبقى في الحزن

قالوا: سمّها

أعطها عنواناً

لكنها كانت تُنكر الاسم

كأنّها تعرف أن التسمية تُقيد النزف

القصيدة لا تُقال

بل تُنزف

ولا تُكتب، بل تُولد

من جهةٍ لا تُرى

كلما ظننتُ أنني كتبتها

كتبتني

وكلما نادیئها

سكنت

كأنها تُعلمني

أن الشعر الحقيقي لا يُجيب

عيدٌ كان يمرّ من بابنا

في اليرموك

كان العيد يمرّ من بابنا

دون أن يطرقه

كأنّه يعرف أن أمّي تُحضّر القهوة

قبل الفجر

وثرّبّي الفرّح في صحنٍ صغير

لا يكفي الجميع

لكنّه يُرضي القلب

كان الجيران يُنادون بعضهم

من فوق السطوح

كأنّ التكبيرات تُقال من حنجرة واحدة

كأنّنا كنّا بيتًا واحدًا

بأبوابٍ كثيرة

كنا نلبس الجديد

ولو كان قديمًا

ونُخبّي الحلوى في جيوبنا

كأنّنا نُخبّي الطفولة من الغياب

ثم جاء الغياب

وغاب العيد

وغابت أمّي

وغابت السطوح التي كانت تُنادي
وغابت الأبواب التي كانت تُفتح
قبل أن تُطرق

الآن، كلما جاء العيد
أُغلق النافذة
وأُطفئ الهاتف
وأُصغي لصوتٍ لا يُقال
إلا في القلب: كل عامٍ ونحن لا نعود

العيد في اليرموك كان أكثر من يوم
كان ذاكرةٌ تُورّع نفسها على وجوه الجيران
وعلى ضحكةٍ تُقال رغم التعب
وعلى طفلٍ يُعدّ النقود كأنّه يُعدّ الأمل

الآن
كلما رأيتُ العيد في المنفى
أبكي
لأنني لا أجد وجهي فيه
ولا وجه أمي
ولا صوت الجارة
وهي تُنادي على أولادها
باسمٍ يُشبه اسمي

العيد في اليرموك

كان صلاة تُقال في الزقاق
وكان تكبيرة تُربّت على القلب،
وكان بيتاً لم تُغلقه يوماً
حتى حين غاب كل شيء

حين كان الشتاء يُرَبِّي فينا الحنين

في اليرموك

كان الشتاء لا يُطرق الباب

بل يدخل من الشقوق

وَيُرَبِّي فينا رجفةً لا تُشبه البرد

بل تُشبه الغياب

كانت أُمِّي تُشعل المدفأة

بأصابعٍ ترتجف

وتُربِّي الدفء في قدر العدس

كأنّها تُقاوم الغياب بملعقةٍ

وبدعاءٍ لا يُقال بصوتٍ عالٍ

وكان أبي يُصغي للمطر

كمن يُعيد ترتيب حزنه

ويُخبِّي ارتجافته في جريدةٍ قديمة

لا تُنقذ أحداً

وكان الجيران

يُنادون بعضهم من خلف الأبواب

كأنّ الشتاء يُعيدهم إلينا

كأنّ المطر يُغسل المسافة بيننا

كنا نلعب في الطين

ونُبِّل أحذيتنا، ونضحك
رغم أن البرد كان يُربِّي فينا
حينئذ لا يُقال

ثم جاء الغياب
وغاب الشتاء
وغابت المدفأة،
وغابت أمي
وغابت الأصوات
التي كانت تُطمئننا
أننا لسنا وحدنا

الآن
كلما أمطرت في المنفى
أُغلق النافذة
وأصغي لصوتٍ لا يُشبه المطر
بل يُشبهني

الشتاء في اليرموك
كان أكثر من فصل
كان ذاكرة تُقطر نفسها
قطرة قطرة
كأنها دمعَةٌ لا تُقال

مائدة فارغة في صباح العيد

في صباح العيد
كانت المائدة تنتظرنا
كأنها تعرف عدد الأرواح
أكثر من عدد الكراسي

كانت أمي
تُربّي الفرحة في طبقٍ صغير
وتُخفي دمعته
في ملح العجين
وكان أبي
يُصغي لصوت التكبير
كمن يُعيد ترتيب قلبه
قبل أن يُصافح الغياب

الجيران يطرقون الباب
بضحكةٍ تُشبه العيد
وبيدٍ تُخبّي الحنين
في قطعة كعكٍ لا تكفي الحزن

ثم غابوا
وغابت أمي
وغابت المائدة
وبقي الصباح يُعيد نفسه

كندبة لا تُشفى

الآن

كلما جاء العيد

أعدّ القهوة وحدي

وأرّبي الصمت

في فنجانٍ لا يُشرب

المائدة فارغة

لكنها ما زالت تنتظر

كأنها تعرف

أن الأرواح لا تموت

بل تتأخر

النافذة التي لم تُفتح منذ الغياب

كانت النافذة تُطلّ على الحارة
على صوت الجارة وهي تُنادي
على ضحكة تُقال من فوق السطح
وعلى ظلّ أبي وهو يُربّي الصمت
في عينيه

كانت تُفتح قبل أن نفتحها
كأنّها تعرف موعد الضوء
وتُصغي للمطر
كمن يُعيد ترتيب الحنين
في قطرة لا تسقط عبثاً

ثم غابوا
وغابت أمّي
وغابت الجارة
وغاب السطح
وأغلقت النافذة لا لأننا أردنا
بل لأن الضوء لم يعد يعرفنا

الستارة ما زالت معلّقة
لكنها لا تتحرّك
كأنّ الريح تخجل من الدخول
وكأنّ الغياب أصبح حارساً

لا يُغادر

كلما مررتُ بها
أُصغي لصوتٍ لا يُقال
وأُربّت على الزجاجِ كـ
من يُربّت على ذاكرةٍ
تُقاوم النسيان

النافذة لم تُفتح منذ الغياب
لكنها ما زالت تنتظر
كأنّها تعرف
أن الأرواح تعود أحياناً
من جهة الضوء
لا من جهة الباب

الاسم حين يُنسى في جيب الغربة

أُخرج اسمي من جيبي

كلما سألني أحدهم:

من أين أنت؟

فأرَبَّت عليه

كمن يُطمئن طفله

أن لا أحد سيبدّله

لكنني لا أُجيب

أراوغ السؤال

كمن يُخفي جرحه

في ضحكةٍ لا تُقنع أحدًا

اسمي تأكل من كثرة الترجمة

من كثرة النطق المرتبك

من كثرة التفسير

لمن لا يعرف أن الاسم أحيانًا

هو وطنٌ صغير

يُقال بصوتٍ مرتجف

في الغربة

لا أحد يُناديك كما كنت

ولا أحد يُخطئ في نطقك

كما كانت الجارة تفعل

بمحبّة تُشبه البيت

أعيد ترتيب حروفي كل مساء
كأنني أعيد بناء وجهي
من ذاكرة لا تُشبهني

اسمي لم يعد يعرفني
ولا أنا أعرف
كيف أعيده إليّ
دون أن أبكي

اليرموك حين كان يُربّي فينا الأمل

في اليرموك

لم يكن الأمل شعارًا

كان رغيًا يُقسم على خمسة

وكان ضوءًا

يُسرب نفسه من شقوق الجدار

كأنه يُربّي فينا الحياة

رغم كل شيء

كانت الحارة تُربّت علينا

كأنها تعرف وجوهنا قبل أن نكبر

وكانت الجدران تُصغي لضحكاتنا

وتُخبّئها كوصايا لا تُنسى

كنا نركض خلف الكرة

لكننا كنّا نركض خلف فكرة

أن الغد قد يكون لنا

أن فلسطين ليست بعيدة

أن العودة تُقال في نشيد المدرسة

ولا تُكذّب

أمي كانت تُربّي الأمل

في طبق العدس

وفي دعائها المرتجف

وفي صوتها وهي تُنادي علينا
كأننا لن نغيب

ثم غاب كل شيء
وغابت الحارة
وغاب الزقاق
وغاب الضوء ا
لذي كان يُربّي فينا
ما لا يُقال

اليرموك لم يكن مكانًا
كان طريقةً في اللحم
وفي النجاة
وفي أن نُحبّ
رغم أن الموت
كان يُمرّ من أمام الباب

الآن، كلما كتبتُ
أعيد بناءه
لا كما كان
بل كما يسكنني:
بأبوابٍ تُفتح قبل الطرق
وبأمهاتٍ يُخفين الخوف في ملح الطعام
وبأطفالٍ يُربّون الأمل
في جيوبهم المثقوبة

القصيدة التي تُكتب من جهة القلب المكسور

لا تُكتب القصيدة بالحبر

بل بما تبقى من القلب

بعد أن غادره الذين أحبهم

تولد من جهةٍ لا تُرى في الضوء

ولا تُقال في المجالس

بل تُهمس في الليل

حين ينام الجميع

ويستيقظ الحنين

كلما حاولتُ أن أكتبها

أخطأتُ في القافية

وفي التوقيت

وفي اللغة

كأنها تُراوغي

لأبقى في النزف

القصيدة لا تُحبّ الضوء

ولا تُجيد الوقوف على المنصّات

هي نُدبةٌ تُقال

في عزلةٍ لا تُشبه الوحدة

بل تُشبه من فقد كل شيء

وبقي يكتب كي لا يموت

أرَبَّيها في صدري كجمرٍ لا يُطفأ
وأخفيها عن الناس كأنَّها سرٌّ لا يُقال
إلا لمن يعرف كيف يُصغي
للألم دون أن يُقاطع

القصيدة التي تُكتب
من جهة القلب المكسور
لا تُنقذ أحداً
لكنها تُبقيني حيّاً بما يكفي
لأكمل السطر التالي

أمي حين كانت تُخيط الغياب بالإبرة

كانت أمي تُخيط الغياب بإبرة صدئة

تُرَقّع الأيام كأنها تُصلح ذاكرةً

تشققت من فرط الانتظار

كانت تُربّي الصبر في خيطٍ لا ينتهي

وتُخفي دمعها في ثنية القماش

كأنّ الحزن لا يليق بمن يُحبّ

كلما غاب أحدٌ من الجيران

كانت تُطرّز اسمه على منديلٍ أبيض

وتُعلّقه قرب الباب

كأنّها تُعيده إلينا

بصوتٍ لا يُسمع

كانت تُصلي وهي تُخيط

وتُربّي الدعاء في غرزةٍ لا تُرى

لكنها تُنقذ القلب من الانكسار

ثم غابت، وغابت الإبرة

وغابت المنديل

وغاب الدعاء

الذي كان يُربّي فينا ما لا يُقال

الآن

كلما رأيتُ خيطاً أصغى لصوتها
كأنّها تُعيد ترتيب الغياب
بأصابعٍ ما زالت تُربّت عليّ
من جهة الحنين

أمّي لم تكن تُخيط الثياب
كانت تُخيطنا
كي لا نتفكّك،
كي لا نضيع
كي لا ننسى
أن الحبّ
هو الطريقة الوحيدة
للبقاء

المنفى حين يُربّي فيك لغة لا تُترجم

في المنفى

تُربّي الكلمات نفسها كأطفالٍ بلا أم

تتعرّض في الحلق

وتُقال بنبرة لا تُشبهك

كلما حاولتُ أن أعرّف نفسي

أخطأتُ في الترجمة

وفي النبرة

وفي التوقيت

كأنّ اللغة تُراوغني

كما يُراوغ الغيابُ الذاكرة

أعيد ترتيب الجملة

كمن يُعيد ترتيب وجهه

قبل أن يُراه أحد

وأُخبّي لهجتي في جيبٍ داخلي

كي لا تُفضح

المنفى لا يُعلّمني لغةً

بل يُربّي فيّ صمتًا لا يُترجم

وغصةً لا تُقال

كلما كتبت
أشعر أنني أترجم نفسي
إلى حروفٍ لا تُفهم
كأنني أعيد بناء جسدي
من لغةٍ لا تُشبهني

المنفى يُربِّي فيّ لغةً لا تُقال
ولا تُكتب،
ولا تُفهم
لكنها تُنزف كلما ناداني أحدهم
باسمٍ لا يُشبهني

طفلاً يركض خلف العيد ولا يلحقه

كان العيد يمرّ من الزقاق

كطيفٍ لا ينتظر أحداً

وكان الطفل يركض خلفه

بقدمين صغيرتين

تُربّيهما الأرض

على الغياب

كان يحمل في جيبه قطعة حلوى

أعطته إيّاها الجارة

ويُخبّئ في قلبه أمنيةً

لا تُقال بصوتٍ عالٍ

كلما اقترب من العيد

ابتعد

كأنّ الفرح يُراوغ

من لا يملك ثوباً جديداً

ولا صورةً يُعلّقها على الجدار

كان يضحك

لكنّ ضحكته كانت تُشبه البكاء

وكان يُعدّ النفود

كمن يُعدّ الغياب في أصابعه

ثم غاب الزقاق
وغابت الجارة
وغاب العيد
وبقي الطفل يركض
في ذاكرةٍ لا تُشبهه

الآن، كلما جاء العيد
أصغي لصوتٍ يُشبه خطواته
وأرَبَّت على قلبي
كمن يُرَبِّت على طفلٍ
لم يُكمل فرحته

الطفل ما زال يركض
لكنَّ العيد لا ينتظره
ولا يُجيب

البيت الذي لم يُغلق بيدي

لم أغلق باب البيت

غادرته كما يُغادر الحلم من جفنٍ مرتجف

تركت الضوء مشتعلًا

والصوت في الممر

والرائحة في الوسادة

كان الباب يُطلّ على الحارة

على صوت الجارة

على ضحكة تُقال من فوق السطح

وعلى ظلّ أبي

وهو يُربّي الصمت في عينيه

غادرنا

لكن الباب بقي

كمن ينتظرنا

كمن يُحدّق في الطريق ويقول:

أين ذهبوا؟ لماذا تأخّروا؟

كلما تذكّرت البيت

أصغي لصوت الباب وهو يُفتح وحده

كأنّه يُعيدني إلى لحظةٍ

لم أودّع فيها أحدًا

البيت لم يُغلق بيدي
ولا بيدي عاد
بقي مفتوحًا كندبةٍ لا تُشفى
وكوطنٍ لا يُنسى

حين بكت الجارة من خلف الستارة

كانت الجارة تُغني كل صباح
من نافذتها التي تُطلّ على الحارة
كأنّ صوتها يُربّي فينا الأمل
كما تُربّي الأمّ طفلها
بكفٍّ مرتجفة

كنا نُصغي لها
كمن يُصغي لنداءٍ لا يُقال في الضوء
وكنا نعرف
أن الغناء هو الطريقة الوحيدة
لإقناع الغياب أننا ما زلنا هنا
ثم جاء الصمت
وغابت الأغنية
وغابت النافذة
وبقيت الستارة تُرتّب نفسها
كأنّها تُخفي دمعاً لا تُقال

رأيتها ذات مساء
تبكي من خلف الستارة
كأنّها تُودّع الحارة
بصوتٍ لا يُسمع
وبقلبٍ لا يُشفى

لم تُفتح النافذة
ولم تُقال الأغنية
لكنّ الحزن كان يُطلّ منها
كنداءٍ لا يُجاب

كلما مررتُ بالحارة
أُصغي لصوتها كما كان
وأُربّت على الجدار
كمن يُربّت على ذاكرةٍ
تُقاوم النسيان

الجارة لم تكن تُغني
كانت تُنفذنا
وحين بكت
بكينا معها
لكننا لم نُجب

المدينة التي نسيت اسمها

في المدينة التي نسيت اسمها
كان الضوء يتعثّر في الأزقة
وكانت النوافذ تُغلق نفسها
كأنها تخجل من النظر

السما لم تكن زرقاء

كانت رمادًا

يُعيد ترتيب الغيم

كما يُعيد القلب

أسماء الذين غابوا

الشارع يمشي وحده

لا أحد يسأله عن وجهته

ولا عن حزنه

الذي يتدلّى من أعمدة الكهرباء

كغسيلٍ لم يُجفّف

في تلك المدينة

كان الصمت يُربّي الأطفال على الخوف

وكانت الأشجار تُصلي للريح

أن لا تُسقط أوراقها

قبل أن تُودّعها

الوجه تُشبه بعضها
كان الحزن طبعها بطابع واحد
والأسماء تُقال همسًا
كأنها تُخاف

في الليل تُضيء القناديل نفسها
ثم تنطفئ
كأنها تُجرب الحياة ولا تُحبها
وفي الفجر
تُغسل الأرضة بدموع
لا أحد يعرف من أين جاءت

المدينة لا تُجيب
ولا تُنكر
ولا تُحب
هي فقط تُراقبنا ونحن ننسى
أننا كنّا نحبها

حجرٌ لا يعرف طريقه

في آخر الحقل

كان حجرٌ يُحدّق في الريح

لا يعرف طريقه

ولا لماذا تُشبهه الأشجار

حين تبكي

السماء تُبدّل جلدها كل مساء

، تُعلّق غيمةً وتنساها

كأنها تُجرب الحزن

ولا تُجيده

في الزاوية تجلس امرأةٌ

تُربي الغياب في كفّها

تُقشّر الوقت

كما يُقشّر الطفل برتقالةً

لا يعرف طعمها

النهار يمشي على عكازٍ

من ضوءٍ مكسور

والعصافير تُغنّي

لأشجارٍ لا تُنجب ظلًا

أنا أُعيد ترتيب أصابعي

كلما ناداني التراب
أرّبي في صدري صوتًا
يشبه ارتعاش الحطب
قبل أن يُحرق

في الليل
تُضيء النافذة نفسها
ثم تنطفئ
كأنها تُحاول أن تتذكّر اسمًا
لم يُكتب على الباب

القصيدة لا تُريد أن تُقال
تُفضّل أن تُنسى
في جيب معطفٍ لم يُغسل
منذ الشتاء الأول

الشام التي تمشي على جرحها

الشام تمشي على جرحها

كمن يُربّي الندى

في كفٍّ أُصيّبت باليباس

تُغلق نوافذها لا خوفًا

بل كي لا يرى الغيم دموعها

وهي تُبلّل أسماء

مُحيّت من الجدران

في الحارات القديمة

يُصغي الحجر

لخطى الذين غابوا

ويُربّت على ظلّهم

كما تُربّت الأمّ على سرير

لم يعد فيه أحد

الضوء يتسلّل من بين الشقوق

كأنّه يُحاول أن يتذكّر وجهًا

كان يُطلّ من النافذة

ويُغني للريح

الشام لا تبكي

هي فقط تُعيد ترتيب حزنها

في فناجين القهوة
وفي رائحة الزعتر
التي تُشبه ذاكرةً
لم تُغسل منذ الحرب

في الليل تُضيء القناديل نفسها
ثم تنطفئ
كأنها تُجرب الحياة ولا تُحبّها
وفي الفجر تُصلّي
لأبوابٍ لم تُفتح
منذ الغياب

الشامُ تُربّي الغياب
كما يُربّي الطفل على اسمٍ
لن يُنادى به
وتُعلّق على جدرانها صورًا
لا تُشبه أحدًا
لكنها تُشبهها

على كتفها ينام التاريخ
وفي صدرها
ينام الذين لم يُودّعوا
كما يجب

الشام واليرموك

في اليرموك

كان العيد يُطرق الباب

ولا أحد يفتح

وكانت الجارة تُغني

من خلف الستارة لطفلٍ

ركض خلف العيد

ولم يلحقه

الزقاق يحفظ أسماء

لم تُكتب على الجدران

والرغيف يُقسم نفسه

بين الغياب والأمل

الذي لا يُشبع أحدًا

في الشام تُربي البيوت أصواتًا

غادرت منذ زمن

وتُعلق على الحيطان مفاتيح

لا تفتح شيئًا

لكنها تُذكرُ بأبوابٍ

كانت تُحبنا

القصيدة تُقال همسًا

كأنها تخاف أن تُوقظ المدينة
والحرف يُرتّب نفسه
كما يُرتّب الحزن
في جيب المنفى

الشام لا تُعاتب أحدًا
هي فقط تُضيء نفسها وتغيب
كأنها تُدرّب الضوء
على النسيان

طاولَةٌ بلا أصوات

كانت الطاولة تضحك

من كثرة الأيدي

وكان الشاي يُوزَّع نفسه

على ضحكاتٍ تُشبهنا

كانت الأمُّ تُربِّي الليل في عينيها

وتُضيف للنِّعناع رائحةً من قلبها

وكان الأب يُعيد ترتيب الحكايات

كمن يُربِّي الذاكرة

على كتف الوقت

كنا نلتفّ

كما يلتفّ الضوء حول شمعةٍ

لا تخاف الريح

وكانت الأصوات تتشابك

كأنها خيوطُ تخطيط المساء

ثم تفرّقنا

كلُّ في جهة

كأننا أوراقٌ سقطت من شجرةٍ

لا تعرف الريح

صار كلُّ واحدٍ يُربِّي وحدته

في بلدٍ لا يُشبه الآخر

الطاوله ما زالت هناك
لكنها بلا أصوات
والكراسي تحنّ لمن جلسوا
والجدران تُصغي للسكوت
كأنها تُترجم الغياب

الأمّ تُعدّ الشاي وحدها
وتُضيف للنعناع دمعاً لا تُرى
والأب يُحدّق في الباب
كمن ينتظر
من لا يعود

كنا نضحك من دون أن ننتبه
كنا نُربّي المساء كما يُربّي الطفل
على اسمٍ يُقال كل ليلة
والآن نُربّي الحنين
كما يُربّي الحزن
في جيب المنفى

تكملة: طاولة بلا أصوات

في الصورة القديمة

كان الجميع يضحك

حتى الجدار كان يبتسم

والضوء يُرَبِّي دَفْئَه

على أكتافنا

الآن كلّ واحدٍ يُحدِّق في نافذةٍ

لا تُطلّ على أحد

والأعياد تأتي ولا تسأل عنّا

كأنها تُجامل الغياب

أمي تُعدّ الطعام

كما لو أن الجميع سيحضر

ثم تُغلق القدر وتُطفئ النار

وتجلس تُحدِّق في الباب

كمن ينتظر

من لا يعود

أبي يُحدِّث الكرسي

عن زمنٍ كان فيه الصوت

يملأ البيت

ثم يسكت

كأن الحكاية لم تعد تُجديه

أختي ترسل صورةً
من بلدٍ لا يعرف اسم الشام
وأخي يكتب لي عن بردٍ
لا يُشبه دفء الطاولة

وأنا أُرَبِّي الحنين
في جيبٍ مثقوب
كلما حاولتُ أن أُمسك الذكرى
تسرّبت من أصابعي كالماء
كالحزن
كأمي حين تُخفي دمعنها

الطاولة ما زالت هناك
لكنها لا تعرف أسماءنا
ولا لماذا توقّف الضحك
ولا لماذا صار الشاي باردًا
قبل أن يُقدّم

تكملة أخيرة: طاولة بلا أصوات

في المساء تجلس أمي وحدها

تُحدّث الملعقة

عن ضحكةٍ

كانت تُربّي الدفء في الزاوية

تُفشّر البطاطا كما كانت تفعل

حين كنا نطلب المزيد

ولا نعرف أن الوقت

سيأخذنا إلى جهاتٍ لا تتقاطع

أبي يُطفئ الراديو قبل أن يبدأ النشيد

يقول: لا أحد هنا ليُردّد

ثم يُغلق عينيه

كمن يُطفئ ذاكرته

بكفٍّ مرتجفةٍ

أختي تُرسل صوتها من خلف شاشة

تقول: الثلج هنا لا يُشبه حارتنا

وأخي يكتب لي عن مدينة

لا تعرف اسم الزيتون

ولا لماذا يُبكيه صوت المئذنة

وأنا أُعيد ترتيب الصور

في درجٍ لم يُفتح منذ أن غادرنا
أرَبِّي الحنين كما يُرَبِّي الطين
على شكل وجهٍ لم أعد أراه
إلا في الحلم

الطاولَة تُصدّق الغياب
والكراسي تُشيّع من جلسوا
بصمتٍ لا يُقال
والبيت يُطفئ نفسه كل مساء
كأنّه يُدرّب الضوء
على الموت

حين غادروا دون وداع

لم يقولوا وداعًا

غادروا

كما يغادر الضوء من نافذةٍ

أُغلقت على عجل

تركّتُ أصواتهم معقّلةً في الزاوية

كأنها صورٌ نسيت

أن تُغادر الجدار

كانوا هنا يضحكون

كأن الحياة لا تعرف الفقد

وكانت القهوة تُوزّع دفئها

على أكفٍ تُشبه الوطن

الآن كلّ واحدٍ في جهةٍ لا تُشبه الأخرى

واحدٌ يُربّي الغربة

في مدينةٍ لا تعرف اسمه

وآخر يُحدّث الغيم

عن بيتٍ كان يضحك كثيرًا

الرسائل تأتي متأخرة

كأنها تُجامل الغياب

والأسماء تُقال همسًا كأنها تُخاف

كأننا نُعيد ترتيب الذاكرة

بأصابع مرتجفة

أشتاق لهم

كما يشتاق الباب لـ

طرقٍ لم تعد تُسمع

وأرَبِّي الحنين في جيبٍ لا يسعني

ولا يسعهم

كانوا يُضيئون المساء

بضحكةٍ واحدة

والآن أضيء وحدتي

بصورةٍ لا تُجيب

اليرموك الذي لا يُغلق بابه

اليرموك كان يُضيء نفسه

حين تنطفئ المدن

وكانت الأزقة تُربي العيد

في جيوب الأطفال

وكانت الجدران تحفظ أسماء

لا تُقال إلا همساً

ثم جاءت القذائف

لا تسأل، لا تعتذر

تُحطّم الباب وتتركه مفتوحاً

على غيابٍ لا يُغلق

اليرموك لم يمت

قُتل

بصوتٍ لا يُشبهه

وبنارٍ لا تعرف وجهه

وبصمتٍ

من الذين كانوا يُحبّونه

في الزاوية

ما زالت صورة أُمي

تُحدّق في الفراغ

وفي الممرّ رائحة الخبز

تُحاول أن تتذكّر

من كان يورّعه

اليرموك لا يُطالب بشيء

هو فقط ينتظر

أن يُقال اسمه دون خوف

أن يُكتب دون حذف

أن يُزار كما تُزار القبور

التي لم تُودّع

كما يجب

رسالة ختامية إلى القارئ

من حسن العاصي، إلى من عبر هذه الخرائط بقلبه

أيها القارئ العزيز، حين فتحت هذا الديوان، لم تدخل إلى كتاب، بل إلى بيت. بيتٌ من كلمات، نوافذه مفتوحة على اليرموك، وأبوابه تُفضي إلى الحنين، وسقفه من قصائد لا تُطلب منها أن تُشفى، بل أن تُضيء.

لم أكتب هذه النصوص لأخبرك عن المخيم، بل لأخبرك عن نفسي فيه، وعن نفسي بعده، وعن نفسي التي لا تزال تبحث عنه في كل زاوية من الغربة. كتبتها لأنني لا أملك خريطة تُعيدني، ولا مفتاحاً يُفتح باباً قد هُدم، ولا صورةً تُشبه ما تبقى. كتبتها لأنني، في لحظةٍ ما، شعرت أنني إن لم أكتب، سأفقد ما تبقى من اليرموك في قلبي.

كل قصيدة هنا هي محاولة للنجاة، لا من الحرب فقط، بل من النسيان. هي محاولة لاستعادة ما لا يُستعاد، ولتسمية ما لا يُسمّى، وللاّمساك بما يتسرّب من بين الأصابع كلما حاولنا أن نُعرّف الوطن. وكل سطرٍ فيها هو اعتراف: أنني نجوت، نعم، لكنني لا أحتفل، لأن النجاة ليست حياة، بل عبء يُقال في الليل، حين تُفتح أبواب الذاكرة على مصراعها.

أعرف أن كثيراً منكم لم يرَ اليرموك، ولم يمش في أزقته، ولم يسمع صوت المؤذن من جامع عبد القادر الحسيني، ولم يتذوّق خبز أفران المخيم، ولم يُنادِ "يمّا" في حاراته. لكنني أوّمن أن الحنين لا يحتاج إلى جغرافيا، وأن الذاكرة حين تُقال بصدق، تُصبح مشتركة، حتى بين من لم يعيشوها.

فإن وجدت نفسك في هذه القصائد، فأنت متّاء، وإن بكيت على بيتٍ لم تسكنه، فأنت تسكنه الآن، وإن ارتجفت لهجتك حين قرأت، فأنت تعرف كيف تُرتجف اللغة حين تُحمل فيها البلاد.

خرائط اليرموك في قلبي هو ديوانٌ عن الغياب، لكنه لا يُكتب من فراغ. بل من امتلاءٍ لا يُحتمل، من حبٍ لا يُنسى، ومن وجعٍ لا يُراد له أن يزول. هو ديوانٌ عن بيتٍ لا يُغلق، وعن وطنٍ لا يُرسم، وعن قصيدةٍ تُصبح مأوى حين لا يبقى مأوى.

شكراً لأنك مشيت معي في هذه الأزقة، شكراً لأنك أصغيت، شكراً لأنك حملت اليرموك في قلبك، ولو للحظة.

من حسن العاصي إلى كل من يعرف أن الوطن قد يكون سطرًا، وقد يكون دمعة، وقد يكون اسمًا يُقال في الحلم ولا يُنسى.

د. حسن العاصي

المؤلف في سطور

الدكتور حسن العاصي

- باحث أكاديمي وكاتب متخصص في دراسات الهجرة والهوية والأنثروبولوجيا السياسية.
- يهتم بالنصوص السردية الشعرية

التأهيل الأكاديمي:

- حاصل على دكتوراه في الأنثروبولوجيا
- حاصل على ماجستير في الإعلام والصحافة
- حاصل على بكالوريوس في الإعلام والصحافة
- حاصل على دبلوم دراسات فلسطينية
- دبلوم التعليم في البيئات الصعبة " المتأثرة بالصراعات"
- حاصل على دبلوم تدريس الهجرة من خلال البيانات

العضوية في الاتحادات:

- عضو في اتحاد الصحفيين الدانماركيين
- عضو في اتحاد الكتاب الدنماركيين
- عضو الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
- عضو نقابة الصحفيين الفلسطينيين
- عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب
- عضو لجنة تحكيم في مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية.

المنشورات:

- ثرثرة في كانون (ديوان شعر) إصدار مطبعة بوماد/ الدار البيضاء/ 2008
- خلف البياض (ديوان شعر) إصدار دار جزيرة الورد للنشر/ القاهرة/ 2014.
- أطيفاف تراوغ الظمأ (ديوان شعر) إصدار مؤسسة شمس للنشر والإعلام/ القاهرة/ 2016.
- امرأة من زعفران (ديوان شعر) إصدار مؤسسة شمس للنشر والإعلام/ القاهرة/ 2017.
- درب الأراجيح مغلق (سرديات نثرية) صادر عن هيئة الكتاب الوطنية الدنماركية/ 2020.
- الأدب الفلسطيني في الصحافة الفلسطينية المطبوعة خلال القرن العشرين صادر عن هيئة الكتاب الوطنية الدنماركية عام 2025.

- تمثيلات المسلم في الصحافة الدنماركية (كتاب فكري) صادر عن دار فضاءات/ عمان/2024.

- ساهم في إصدارات عالمية

- ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الإنجليزية والدنماركية والبلغارية

حاصل على:

- درع مؤسسة الأرض الفلسطينية (النموذج الفلسطيني عام 2018)

-جائزة الإبداع الأدبي مؤسسة الفكر

-درع السلام الفائز الأول بقصيدة النثر/مؤسسة الفكر

-وسام الأنتلجنسيا مؤسسة أنتلجنسيا للثقافة والفكر الحر

-وسام العطاء الإبداعي مرتين/ مؤسسة الصدى للإعلام

الموقع الفرعي:

<https://cutt.us/6eaVp>

- مقيم في الدنمارك منذ عام 1999.

- من أصول فلسطينية وحاصل على الجنسية الدنماركية.

المحتويات

3.....	الإهداء
4.....	مقدمة لا تُشبه المقدمات
6.....	عن المؤلف
7.....	تقديم
10.....	اليرموك الذي يسكنني
12.....	حين كانت الحارة تعرف اسمي
14.....	صوت جدتي في صلاة الفجر
15.....	في المنفى لا أحد يقول "يمًا"
17.....	شارع اليرموك لا ينام
19.....	حقيبتني لا تتسع لليرموك
21.....	لهجتي تُرتجف حين أُجيب
24.....	عدتُ ولم أعد
27.....	سامحني لأنني نجوت
29.....	خرائط اليرموك في قلبي
31.....	الوطن الذي لا يُرسم
33.....	حين تُصبح القصيدة بيتًا
36.....	أُمي التي غابت خارج المخيم
39.....	أبي الذي غاب خارج المخيم
42.....	أخي الذي غاب قبل أن أراه
45.....	عمتي التي كانت أُمي حين غابت الأم
48.....	نافذةٌ كانت تطلّ على الحياة
51.....	طفولتي التي لم تكتمل
53.....	المدرسة التي لم تكتمل
55.....	الغروب في المخيم كان يُشبه الوداع
57.....	صوت المؤذن الذي لا يُجاب
59.....	الباب الذي أُغلق ولم نعد
62.....	بين هناك وهنا
65.....	معنى الوطن
66.....	فلسطين التي تسكننا
67.....	المخيم كرمز
68.....	الكتابة بوصفها عودة
70.....	اليرموك الذي لا يُمحي

- 71.....اليرموك لا يُنسى
- 74.....حين تكتبك الورقة قبل أن تكتبها
- 79.....المنفى لا يُعرّفني، لكنه يُشبهني
- 81.....الحنين الذي يسكنني أكثر من نفسي
- 83.....حين ضاق بي ظلي
- 85.....نُدبة
- 88.....الظل حين يُصاب بالدوار
- 89.....القصيدة التي تُنكر اسمها حين يُقال
- 91.....عيدٌ كان يمرّ من بابنا
- 94.....حين كان الشتاء يُربّي فينا الحنين
- 96.....مائدة فارغة في صباح العيد
- 98.....النافذة التي لم تُفتح منذ الغياب
- 100.....الاسم حين يُنسى في جيب الغربة
- 102.....اليرموك حين كان يُربّي فينا الأمل
- 104.....القصيدة التي تُكتب من جهة القلب المكسور
- 106.....أُمّي حين كانت تُخيط الغياب بالإبرة
- 108.....المنفى حين يُربّي فيك لغة لا تُترجم
- 110.....طفلٌ يركض خلف العيد ولا يلحقه
- 112.....البيت الذي لم يُغلق بيدي
- 114.....حين بكت الجارة من خلف الستارة
- 116.....المدينة التي نسيت اسمها
- 118.....حجرٌ لا يعرف طريقه
- 120.....الشام التي تمشي على جرحها
- 122.....الشام واليرموك
- 124.....طاولةٌ بلا أصوات
- 126.....تكملة: طاولةٌ بلا أصوات
- 128.....تكملة أخيرة: طاولةٌ بلا أصوات
- 130.....حين غادروا دون وداع
- 132.....اليرموك الذي لا يُغلق بابه
- 134.....رسالة ختامية إلى القارئ
- 135.....المؤلف في سطور



في هذا الكتاب، لا تُقال القصائد، بل تُتذرف، وتُهمس من جهة القلب المكسور.
هنا، اليرموك ليس مخيمًا، بل ذاكرةٌ تمشي على قدمين، اليرموك ليس مكانًا، بل ظلًا يتبعك في المنفى، والعيد ليس فرحًا، بل مائدةً فارغة تنتظر من لا يعود.
هنا، الأم تُخيط الغياب بإبرةٍ مرتجفة، والجارة تبكي من خلف الستارة، والطفل يركض خلف العيد ولا يلحقه.
هذه النصوص لا تُكتب بالحبر، بل بما تبقى من القلب بعد أن غادره الذين أحبهم.
كل قصيدة هي ظلٌ أصيب بالدوار، وكل سطرٍ هو محاولةٌ لإعادة بناء بيتٍ لم يُغلق بيدي.
كل نصٍ هو محاولةٌ لإعادة بناء بيتٍ لم يُغلق بيدك، وكل سطرٍ هو نداءٌ لأسماءٍ تُنسى في جيب الغربة، وكل قصيدة هي نافذةٌ لم تُفتح منذ الغياب.
هذا الكتاب لا يُعرفك، بل يُعيدك إليك، كما كنت قبل أن تُكسر، وقبل أن تُترجم نفسك إلى لغةٍ لا تفهم.
هذا الكتاب ليس عن الحنين، بل هو الحنين نفسه، حين يتحوّل إلى طريقةٍ في التنفّس، وإلى لغةٍ لا تُترجم، وإلى وطنٍ لا يُنسى حتى حين يُمحي.
هنا، الحنين ليس شعورًا، بل طريقةٌ في التنفّس، والقصيدة ليست فنًا، بل نجاة.